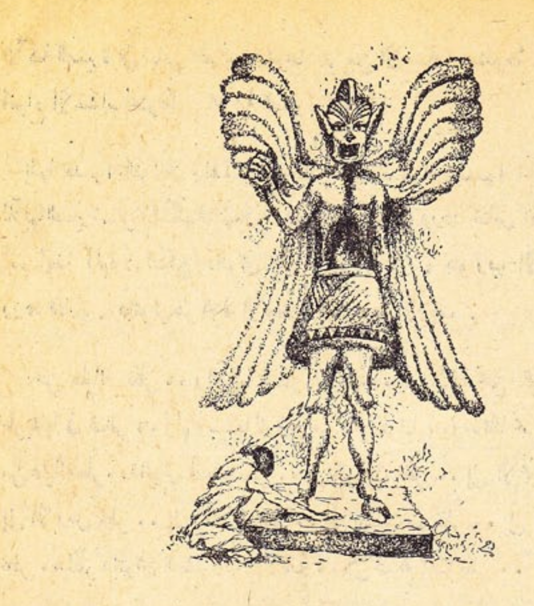

قصص أخرى
تأليف إبراهيم أسعد محمد

قصص أخرى

تأليف
إبراهيم أسعد محمد



داتـــوش

من كل حدب جاءوا .. أتوه يحجون .. من الشمال أتوا ، ومن الجنـــوب أتوا ، من الشرق أتوا ، ومن الغرب كذلك ، سجـدوا له يذلون الجباة .. إليه إبتهلوا .. داتوش أنت الإله .. أنت رب الأرباب .

قدموا إليه القرابين ، والهدايا . السمن ، والدهن ، والعسل ، كل قــدم على قدره .. ثيرانا ، وماعزا ، وديـكة .. ترنم الكهنة فى محرابه .. أنت الإله ياداتوش .. وردد الناس الترنيم .. أنت الإله ياداتـوش ..

فى محراب نصبوه .. فوق الرؤوس عاليا لايدانيه أحد نصبوه .. من الذهب الخالص صنعوه .. من الذهب النقى الخالص صنعوه . أشعلوا النار المقدسة عند قدميه .. النار المقدسة المطهرة أشعلوها ... النار المقدسة المطهرة سبعا .. أشعلوها .

على جانبى المحراب صفوا الآلهة .. على الجانبين أمام رب الأرباب صفوها ..

الآلهة الصغيرة على جانبي المحراب صفوها .. من الأخشاب صنعوها .. من أثمن أنواع الأخشاب نحتوها .. الآلهة الصغيرة نحتوها ..

إليها قدموا القرابين والهدايا .. جبنا وخبزا قدموا .. قدموا الجبن ،والخبز للآلهة الصغيرة .. ترنم الكهنة مبتهلين .. أنتم أيضا آلهة .. وردد الناس الابتهالات .. أنتم أيضا آلهة .. لكن داتوش هو الإله الأكبر ، هو رب الأرباب .. وردد الناس .. داتوش هو الإله الأكبر ، هو رب الأرباب .

من عليائه نظر .. والآلهة تنظر وترى .. ليس كمثلنا نحن البشر .. لها طريقتها فى النظر .. ولها وسيلتها للرؤية .. تغاير طرقنا ، ووسائلنا نحن البشر .. من عليائه نظر .. داتوش العظيم نظر .. إلى المبتهلين نظر .. إلى الأعمى نظر .. إلى الأبرص نظر .. إلى المقعد نظر .. إلى المستضعف نظر .. إلى كل هؤلاء نظر .. نظر داتوش العظيم رب الأرباب .. إلى غيرهم أيضا نظر ..

إستمع إلى إبتهالات المبتهلين إستمع إلى صلوات العابدين .. إستمع إلى دعاء الداعين .. وإلى رجوات الراجين .. إلى كل هؤلاء إستمع .. وإلى غيرهم أيضا إستمع .. وللآلهة طرقها فى السمع .. ليست كطرقنا نحن البشر .

خاطب الآلهة الصغار .. داتوش العظيم خاطب الآلهة الصغار .. تكلم بلا صوت .. شأن الآلهة فى الكلام .. تكلم داتوش العظيم ..

هتفت الآلهة الصغار .. أى داتوش العظيم أنت ربنا الأعلى .. إليك أتى الناس من كل فج .. إليك قدموا الهدايا .. الدهن ، والسمن ، والعسل .. إليك قدموا القرابين .. الثيران ، والماعز ، والديكة .

تبسم الإله العظيم داتوش .. الإله تبسم .. إنشرح صدره بما رأى .. إنشرح صدره بما علم .. أجل .. أنا الإله العظيم .. أنا داتوش الإله الأكبر .. وأنتم أيضا آلهة .. لكنكم آلهة صغار .. آلهة صغار أنتم .

جاء طائر حط على رأس داتوش .. صرخت الآلهة الصغار .. الطائر على

رأس الإله العظيم .. أخرج الطائر وسخا .. إنحدر الوسخ من رأس الإله إلى وجهه وتهامست الآلهة الصغار .. الوسخ على رأس الإله العظيم .. الدنس على وجه الإله .. الأكبر .. الدنس ، والوسخ على رأس الإله ، ووجهه ..

كان من الآلهة الصغار من فرح .. وكان منها من سخر .. فللآلهة أحاسيس ومشاعر .. وإن كانت تغاير أحاسيسنا نحن البشر .

جاءت أسراب الطير المبيت .. حطت رحالها على الآلهة الصغار .. وزال الغضب عن الإله الأكبر .. داتوش رب الأرباب زال عنه الغضب .. ضحك حينما رأى الوسخ .. وضحك حينما رأى الوسخ والدنس على رأس الآلهة الصغار .. كل الآلهة الصغار غضبوا .. وضحك الإله العظيم داتوش .. والآلهة تضحك .. بلاصوت .. ولاخلجة وجه .. ليس كمثلنا نحن البشر .

ربما كان ماحدث بعد هذا نتيجة لغضب الإله العظيم داتوش .. وربما كان نتيجة لغضب الآلهة الصغار .. وربما كان سوف يحدث . ولو لم تغضب الإلهة جميعا .

تسلل صبي . لعله نجل أحد خدم الآلهة ، واعتلى المحراب الأكبر يريد أن يقتنص أحد الطيور النائمة .. زلت قـــدم الصبي وسقط فأطاح بوعاء النار .. النار المقدسة المطهرة سبعا . أمسكت النيران في بعض أخشاب المحراب .. وسرعان ما إمتد لهيبها إلى سائر القاعة .

فر الصبي إلى فراشه يرتعد ولم يفه بـكلمة .. حينما اكتشفوا النيران كانت قد أتت على جميع الآلهة الخشبية . إنصهر الإله الأكبر فأضحى مسخا من ذهب .. لم يستطيعوا أن يقاوموا النيران أو يوقفوها حتى أتت على المعبد ، وأضحى أطلالا سوداء .

مرت الأيام والناس لا آلهة لهم ، ولامعبد فيه يتحنثون .. قام كاهن يدعو .. كيف تـكون مدينة بلا آلهة تحرسها ، وترعاها .

قدم الناس المال والسواعد ، وشيدوا معبدا جديدا على أنقاض المعبد القديم .. نصبوا آلهة جديدة ، ونحتوا لها إلها أكبر .. سموه جلاجوش .

وإجتمع الناس يحجبون .. من كل صوب أتوا .. من الشمال أتوا .. ومن الجنوب أتوا .. من الشرق أتوا ومن الغرب كذلك .. سجدوا يذلون الجباه .. إليــه يبتهلون .. جلاجوش أنت الإله .. أنت رب الأرباب .. قدموا إليه الهدايا .. الدهن ، والسمن ، والعسل .. قدموا إليه القرابين .. ثيرانا ، وماعزا ، وديــكة .

استوحيت مطلع القصة من قصة لـكاتب إنجليزى أنسيت اسمه . أما فيما عدا هذا فالفـكرة وجميع ماجاء بها فمن إنتاجى .

* * *



صـــوت الإله

سأل سائل منهم أى إله هذا الأصم ؟ أى إله هذا الأبكم ؟ كيف يستمع إلى دعاء الداعين ؟ كيف يلبى رجوات الآملين ؟ كيف يعرف العـابدون رغباته ؟ كيف يتلقى المؤمنون أوامره ؟ أى إله هــذا الأصم ؟ أى إله هـــذا الأبــكم ؟.

تلفت الـكهنة إلى بعضهم يتعجبون ! .. كيف يستمع الإله ! ؟ كيف يتـكلم الرب ؟ ! هل يستمع الحجر ؟ هل يتكلم الذهب ؟ كيف ينطق الجماد؟ كيف ينصت ؟ .

قال قائل منهم هذا تمثال الإله جوفوه . إصنعوا سردابا تحت المحراب عن طريقــه تصلون . هكذا يستمع الإله .. وهكذا يتكلم الرب . تشاور الـكهنه فى الرأى .. تهامسوا فيما بينهم يتشاورون .. تساءلوا كيف يتكلم الإله ؟ هل يتحدث بأصوات

للبشر ؟ بأية لغة يتخاطب ؟ ! هل يتخاطب بلغة البشر ! ؟ ماذا لو جاءهم غريب يتحدث ؟ هل يجهل الإله ما يقول ؟ .

فكر حكيمهم فى الأمر . كيف يتكلم الإله ؟ بأى صوت يتفوه ؟ بأية لغة ينطق ؟ .. أفتاهم بأن يجعلوا له صوتاً كأصوات السماء .. قال إضربوا له طبلا منه تفهمون .. إجعلوا للطبول إيقاعات بها ترمزون . إضربوا الرضائه إيقاعاً ، ولسخطه إيقاعا .. لقبوله إيقاعا ، ولرفضه إيقاعا. إجعلوا للإله طبلا لكل ما ترغبون .. إصطنعوه طبلا هادراً به الإله يرعد ، إجعلوا له دويا يزبد .. هكذا يتكلم الإله ، هكذا يتحدث .

إرتضوا الرأى ونفذوه .فى ظلمة الليل إنتزعوا تمثال الإله وجوفوه ،فتحوا فمه وفغروه . قضوا الأيام حتى سووا السرداب ،وحفروه . إصطنعوا من الطبول أحجاما متباينه ،تصدر أصواتامتفاوته . للرضاء صوت ، وللسخط صوت . للقبول صوت ؛ وللرفض صوت . لكل ما أرادوا صوت .

ذهب داعيهم بين الناس يذيع ، يوسوس فى الآذان ويشيع .. هو الإله رب الأرباب يخاطبكم .. يعد عابدكم السراء ، ويتوعد جاحدكم الضراء .. تجمع العامة فى المعبد ينصتون . إستمعوا إلى الإله يعجبون . صدر صوت هادر ، من فم الإله الفاغر ، أنغام متباينه ، وإيقاعات متعددة.. لم يشك أحدهم أن هذا هو صوت الإله فخروا سجداً يرتعدون .. هو رب الأرباب يرعد ، هو رب الأرباب يتوعد ، هو الذى يزبد ، هو الذى يهدد .. مرحبا بمن إهتدى بهداه ، والويل لم خالفه وعصاه . ركعوا له يتمتمون .. أنت رب الأرباب .. أنت أنت الإله الأكبر .

مرت السنون والإله الناطق تزداد شهرته .. تناقلت البلاد أخبار نبوءاته .. ورددت الألسن رواياته .. جاؤوه من كل فج يبتهلون ، يستمعون لأوامره ، ويمتنعون عن نواهيه. أتاه الأعمى .. وأتاه الابرص كل ذى علة أتاه . جاءوه مؤمنين بقوته ، واثقين من سطوته .. إستقر الكهنة ينعمون بما يغدق المتعبدون

من هدايا وقرابين ، وبما يحظون من مكانه فى العالمين . . لم يكن لهم أمر لاينفذ ، أو مطلب يرد . . أليسوا تراجمة الإله ؟ ألبسوا سدنة رب الأرباب ؟.

حلت أيام إبتدعوها . . جعلوها أعيادا للإله،فيها يأتى كل ذى حاجة ، فيها تلبى الطلبات ، وتجاب الدعوات ، فيها يتجمع الناس يشربون،ويأكلون،ويمرحون . أى أيام أولى بالمرح ؟ وأى أعيـــاد أحق باللهو من عيد رب الارباب ؟ حلت الليلة الكبرى،وتدافع الناس إلى المعبد يستمعون لكلمات الإله . . ينالون بركاته يغدقها عليهم كهنتــــه .

لم تشاركهم السماء لهوهم ، ولاهى باركت مرحهم ، تلبدت الغيوم قاتمة تنذر ، وتلاعبت الرياح بالأشجار تهدد . لكن الناس كانوا فى شغل شاغل ، وما كانت الطبيعة لتعوقهم عن التدافع ليستمعوا إلى رب الأرباب . وجاءت اللحظة العظمى التى كانوا إياها يتوقعون . . بدأت الطبول ترسل إيقاعات حانية ؛ تصدر من الفم الإله . . ألهاهم لهوهم عن النذير، وتشاغلوا بأمانيهم عن الوعيد. . وما الطبيعة؟ . . أليست هى من صنع الإله ؟ لو شاء أثارها ، ولو شاء أخمدها ! لعل الآلهة تمرح بدورها فى السماء إبتهاجا بأعياد رب الارباب .

هدر الرعد خارج المعبد يطغى على أصوات الطبول، وارتفعت الدقات فى محاولة هزيلة لأن تطغى على هدير السماء ،ولم تصل أصواتها إلى الآذان . . كانت عاصفة رهيبة لم ير مثلها الناس ،، بدأ الخوف يدب فى قلوبهم فابتهلوا إلى رب الأرباب يبتغون صفحه ورضاه. . كلما تدانت العاصفة تزايدت أصوات الرعد ، والصواعق، وتزايدت معها مخاوف المبتهلين .

تعجبوا كيف يطغى الرعد على صوت الإله ، كيف يسمح رب الأرباب للسماء أن تطمس كلماته ؟ لعلهم بدأوا يشكون،لكنهم لم يجرؤوا يجأرون . . إزدادت العاصفة إقترابا، وتزايد هدير الرعد إرتفاعا . . تحول الخوف فى الأفئدة إلى رعب ، والرعب إلى هلع . . زلزلت جــدران المعبد ، والمنازل . . ارتجت ، كأنمــا تلتق

لطمات معاول هائلة .. تلفت الناس حولهم هلعين يبحثون عن مهرب .. جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الموت ، وما دروا أنه بهم محيط .. إستمعوا إلى جلجلة تملأ الفضاء والكون ، وتتخطى الآذان لتصل رأسا إلى القلوب ترجفها فزعا .

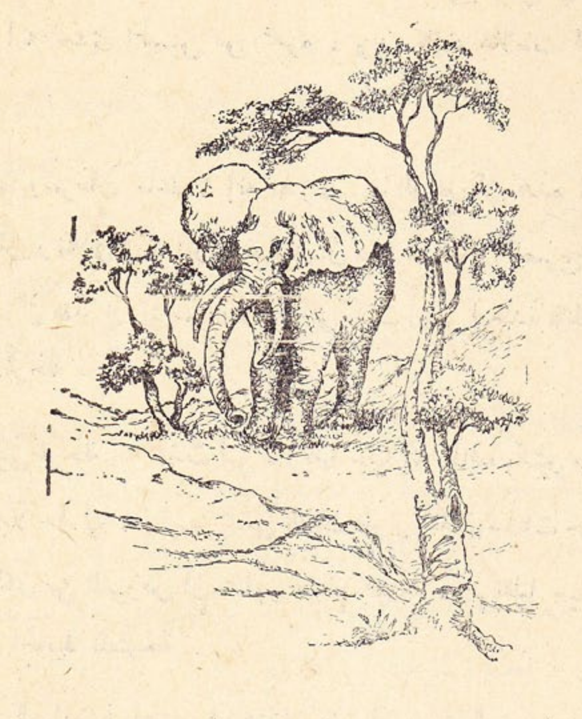
نسوا رب الأرباب ، وماعادوا يفكرون إلا في المفر .. منهم من خذلتهم سيقانهم فكأنما سمرت في الأرض .. ومنهم من إرتفع عويله وصياحه .. ومنهم من تدافع إلى الخارج لا يلوى على شيء ، ومنهم من أيقن بدنو أجله فراح يكرر الدعوات لعل الآلهة تحميه .. أحسوا بالموت في الهواء الذى يستنشقونه ، وفى الجدران التى تتأرجح حولهم ، وماعادوا يعرفون إلى اين يلجأون .. بدا إلههم ضئيلا ، حقيرا ،لاحول له ولا قوة أمام عتو الطبيعة .. رأوا الكهنة وقد هجروا الإله يحاولون الفرار كالجرذان ، ولعل منهم من تنبه إلى سخف ما كانوا يعبدون ، ولعل منهم من زعم أنه لو نجى لثاب إلى رشده لايعبد أحدا من دون الله .

ثم جاءت الصيحة ..

تهدم المعبد على الآلهة ، وكهنته ، وعابديه .. وإنطبقت الدور على من فيها، ومافيها ، لم ينج من المتحصنين ذكر ، أو أنثى ، أو طفل .. فنوا جميعهم إذ دوت الصيحة ، وأصبحوا كأن لم يغنوا بالأمس .. أشرقت عليهم الشمس ، وهم فى اماكنهم جاثمون .

عفوا .. أحسب أنهم لم يفنوا جميعا .. أحسب أنه بقى منهم البعض .. فئة من الصم لم يستمعوا إلى أصوات رب الأرباب .

* * *



الفيـــل

عينت كملحق ثقافي فى سفارتنا فى كينيا .. لم أكن متزوجا فى ذلك الوقت في حين أن معظم زملائى كانوا متزوجين ، فلم يكد يمضى شهر حتى وجدت أن الوقت يمر ثقيلا بعد عملى اليومى خاصة أيام العطلات الأسبوعية أو الرسمية . نصحنى أحد الزملاء أن أقوم ببعض الرحلات إلى داخل البلاد لأتعرف عليها من ناحية ، ولأرفه عن نفسى من ناحية أخرى .

إتفقت مع أحد مكاتب السياحة لأقضى عطلة نهاية الأسبوع فى زيارة لحدائق الحيوان المفتوحة فيما يطلقون عليه الآرك ، أو سفينة نوح ، وهو مكان يبعد عن نيروبى بحوالى ثلاث ساعات بالسيارات ، حيث يمكن مشاهدة الحيوانات وهى على طبيعتها الوحشية دون أى حاجز ، فى مساحة تربو على ثلاثمائة ميل مربع .

في اليوم المحدد ركبت إحدى سيارات مكتب السياحة ضمن جماعة من السائحين ؛

وتحركت بنا السيارة فى حدود الساعة التاسعة صباحا .. إلى جانبى فى المقعد جلس رجل قدرت أنه تعدى الخمسين من عمره ، وإن كانت علامات القوة مازالت بادية عليه .

تحدثنا ، وسرعان ماعلمت أنه مصرى . والواقع أن هذه المصادفة كانت غريبة حيث أن زملائى فى السفارة أخبرونى أن عدد السائحين المصريين قليل جداً . على أى الأحوال فقد إزداد سرورى إذ أننى كنت أشعر بوحدة قاتلة ، ولم أكن متفائلا بهذه الرحلة .

أثبت رفيق الرحلة أنه محدث لبق ، وبدا جليا أنه طاف بكثير من أنحاء العالم كما أن خبراته لا حد لها ، لم أشعر بمضى الوقت طوال الثلاث ساعات حتى وصلنا إلى أبردير حيث كان من المفروض أن نتناول طعام الغذاء ، ثم تقلنا سيارات خاصة تدخل بنا إلى الحديقة المفتوحة .

نزلنا من السيارة فى أبردير ، وهنا لاحظت أن رفيق السفر به عرج خفيف فى ساقه اليسرى . تناولنا طعام الغذاء ، ثم ركبنا السيارات فى الساعة الثانية والنصف مساء ، فحملتنا إلى سفينة نوح أو الآرك ، فى أعماق الغابة ، حيث كنا سنقضى الليلة لنعود فى الساعة الثامنـــة صباحا الى ابردير ، ونستقل سيارات السياحة عائدين إلى نيروبى .

لعله يكون من المستحسن هنا أن أذكر شيئاً عن مستقرنا الأخير ، وأعنى به الآرك . هو مبنى خشبى ضخم مكون من ثلاثة طوابق بنى وسط الغابة ليسع اقامة ثمانين شخصا . فى الناحية الشرقية منه تنفرج الأشجار عن مساحة واسعة جرداء لا ينبت فيها سوى القليل من الــكلأ . هذه الرقعة أرضها ملحية ، ولا توجد أرض ملحية أخرى فى الغابة ، لهذا تؤمها جميع أنواع الحيوانات لتعلق الأملاح ، خاصة المنطقة الوسطى ، وهى على مايبدو أغناها بالملح .

لا تأتى الحيوانات إلا مساء ، ولهذا فان الشركة التى تتولى إدارة الفندق

وضعت كشافات قوية سلطتها على هذه المنطقة ، ثم رتبت الأمر بحيث تكون الشرفات جميعا شرقية فى الطوابق الثلاث بحيث يستطيع جميع الزوار أن يشاهدوا الحيوانات منها .

تناولنا الشاى ، وجلسنا ، رفيقى وأنا ، فى الشرفة بالدور الأرضى ، كان الظلام ما يزال بعيداً لهذا لم نر سوى بعض الخنازير البرية ، أم وثلاثة صغار ، تلعق وترعى . مكث الأمر على هذا فترة حتى بدأت الشمس تختفى وراء الأشجار . من مكان ما ظهر ثور وحشى ضخم الجثة ، وفرت الخنازير أمامه . دقائق أخرى ثم ظهر قطيع من الثيران الوحشية يزيد عدده على أربعة ، ما لبث أن انضمت إلى الاول .

اكتفت الخنازير البرية بالرعى بعيداً عن الثيران التى راحت تلعق بسرور واضح التربة والاحجار للملحية . بعد حوالى ربع ساعة اختفت الشمس وبقى الغسق مترددا يختلس الدقائق الباقية من ضوئها . للحيوانات قدرة غريبة على أن تظهر فجأة من بين الاشجار ، والاحراش . قد تكون على بعد بضعة خطوات منك فلا تراها ، ثم فجأة تنظر فإذا بها أمامك .

هكذا كان . ظهر فيل هائل الحجم كأنما انشقت الارض عنه . كان أضخم من جميع الأفيال التى شاهدتها فى حدائق الحيوان ، وظهر أن ساقه الخلفية اليسرى بها عرج خفيف . تقدم رافعا خرطومه الطويل ، وانتصبت أذناه على جانبى رأسه الضخم . كان يتحدى .. وانسحبت الثيران . حاول زعيمها فى مبدأ الأمر أن يستمر فى اللعق بعيدا عن الفيل الذى احتل لنفسه أحسن الأماكن . لم يكن هذا يضير الفيل فى قليل ، أو كثير ، لكنه رفض إلا أن ينفرد بالارض جميعا دون شراكة .. ترك ما هو فيه وإندفع نحوه . وتنحى الثور مبتعداً مكتفيا بأن يرعى مع رفاقه .

ظهرت أنثى وحيد القرن ، وورائها صغيرها ، وتقدمت بحذر تتلمس طريقها .. انتصبت أذنا الفيل ، وارتفع خرطومه عاليا فى الهواء مظهرا نابين هائلين ، وصرخ صرخة مروعة إندفع اثرها بسرعة مذهلة نحو القادمين . ستة أطنان أو تزيد من اللحم ، والعظام ، والعضلات ، تندفع بسرعة لا تقل عن عشرين كيلو مترا فى الساعة . ترددت

القادمة ولعلها خشيت على وليدها فاستدارت يتؤده ليختفى الإثنان بين الاشجار .

عاد الفيل نخورا ، واستأنف لعقه مسرورا . كان الليل قد أقبل ، وأضيئت الأنوار الكاشفة حول المنطقة حتى أن الرؤية لم تتأثر بالظلام .. استمر الموقف على ماهو .. الفيل يستأثر بكل المنطقة الملحية على سعتها ، والثيران ترعى بعيدا ، والخنازير تحوم بين الأحراش ، تظهر ، وتختفى . مضت حوالى نصف الساعة على هذا الحال حتى بدا أن الفيل اكتفى بما نال ، وترك المكان عائدا إلى الاشجار .

تلصصت الثيران متجهة إلى المنطقة الملحية ، وبدأت تلعق . التفت الفيل فجأة ولما رآها عاد مندفعا نحوها متحديا . هربت الثيران مبتعدة عن طريقه ، وعاد الفيل للاستمتاع بالملح بمفرده . دقائق أخرى وظهر فيلان .. كانا أصغر حجما من الأول .. وهاجمهما الفيل ، لكن الإثنين وقفا جنبا إلى جنب مكونين حائطا هائلا ، وهاجماه بدورهما .. إضطر إلى التراجع لكن ليس لمدة طويلة . عاود هجومه وتراجع الفيلان . ثم كأنما باتفاق ، تنحى الفيل عن استئثاره ، واشترك القادمان فى لعق الأملاح ، وإن إختص الأول بأحسن الأماكن .

استمر الحال على هـــذا . الأفيال الثلاثة تلعق ماشاءت من الملح حتى مايزيد على طاقتها ، والجاموس الوحشى يقف عن بعد يشهد ، ويرقب ، وكأن به حسرة وغيرة ، والخنازير البرية تختفى فى الادغال حينا ، وتظهر حينا ، لتنظر إلى الموقف ثم تعود إلى الإختفاء بين الأشجار .

ألقى الظلام ظلالة قاتمة على الغابة ، وأضاءت الأرض الملحية أنوار المصابيح الكاشفة .. بدا أن الحال لن يتغير لمدة طويلة إذ استمرت الأفيال فى اللعق دون أية إشارة بأنها ستكتفى فى القريب .. اقترح رفيقى أن نذهب لنتناول العشاء ثم نعود ، مؤكدا أن الموقف لن يتغير ، وأننا لن يفوتنا شىء .

جلسنا إلى المائدة نتبادل الحديث وابتدرته .

ـــ ان هذا الفيل الاعرج الضخم مثال مجسد للأنانية المطلقة . إنه لا يريد أن يشاركه أحد من الحيوانات ، حتى من بنى جنسه ، فى التمتع بالملح بالرغم من وجود ما يكفى الجميع ، وزيادة ، وبالرغم من أن أحدا لن يزاحمه .

أجابنى دون أن يرفع نظره عن طبق الحساء .

— لقد عرفت من البشر من هم أكثر أنانية .

أحسست أن هنالك قصة وراء هذه الإجابة . ثار فضولى إلا أن الرجل استمر فى تناول طعامه دون أن يشير إلى الموضوع . تطرق بنا الحديث أثناء الطعام إلى موضوعات شتى ، ثم انتقلنا إلى الشرفة لنحتسى القهوة . لم يكن الموقف قد تغير . تذكرت ماقاله رفيقى ونحن على العشاء وأردت أن أثير الموضوع ثانية عساه يروى لى القصة التى وراء جملته . ابتدرته .

— يبدو أن الفيل الأعرج ما يزال يتمتع بأنانيته .

نظر إلى رفيقى نظرة أحسست أنها تجاوزنى إلى أفق بعيد .

— أجل .. لكنه لا يزال وحيدا . إن الفيلين الآخرين يلعقان سويا أما هو فمنفرد .

أجبت بإصرار .

— أجل لكنه يستمتع بما يرعب .

أجابنى متسائلا .

— أتظن ذلك ؟ ... هل يمكن الإستمتاع بأى شىء دون مشاركة ؟

أصررت للمرة الثانية .

— إنه يبدو كذلك .

هز كتفيه دون اكتراث .

— إننا مازلنا فى الساعات الأولى من الليل .

لم نعد إلى المناقشة ، وأخذنا فى مراقبة الحيوانات فى صمت . مضت حوالى نصف ساعة بعد ذلك دون أن يتغير الموقف . ظهر ضبع لم يأبه له حيوان ، وتلصص عند الأطراف دون أن يجرؤ على الإقتراب ثم إختفى بين الأشجار .

نصف ساعة أخرى ، وظهر عند أطراف الغابة فيل هائل الحجم ، وتقدم نحو لأرض الملحية . توقف على بعد يسير من الأفيال الثلاثة كأنما يزن الأمر ، وتوقفت الأفيال عن اللعق منتظرة . رفع القادم خرطومه الطويل إلى أعلى وثناه إلى الخلف . وفجأة ظهر من بين أشجار الغابة القاتمة قطيع من الأفيال ، عشرة أو تزيد ، بين ذكر ، وأنثى ، وصغير .

إنتظر القادم حتى لحقت به الجماعة ثم تقدمها نحو الأفيال الثلاثة . لم ينظر إلى الفيلين ، واتجه رأساً إلى الفيل الأعرج رافعاً خرطومه ، وصارخا صرخة دوت فى السكون ، لم يتردد الفيل الوحيد إذ لم يكن له قبل بقتال القطيع برمته . أولانا ظهره وإندفع هاربا نحو الغابة وهو يتحامل على ساقه العرجاء .

من ناحية أخرى لم يتحرك الفيلان ، ولم يبد على القادمين أى تضرر من مشاركتهما لهم ، ولم يلبث الجميع أن مضوا يلعقون وكأنما كان الفيلان من ضمن القطيع . دقائق أخرى وظهر الفيل الأعرج . لم يأت متحديا ، وإنما مسالما . ولم يقبله القطيع . ما أن ظهر حتى إستدار له الزعيم ، واندفع نحوه مهاجما . إنسحب الفيل الأعرج إلى الغابة ولم نره بعد ذلك بينما إستمرت الأفيال جميعا تلعق فى سلام .

التفت إلى صاحبى وسألنى .

— هل مازلت عند رأيك فى أنه يستمتع بما يفعل ؟ .

لم أكن محتاجا إلى تفسير لأعلم أنه يشير إلى الفيل الأعرج ، فانتهزت الفرصة ، وأجبت .

— ربما ليس الآن ، ولكن لا شك أنه أخذ كفايته فى مبدأ الأمر ، واستمتع ما شاء قبل أن يفد القطيع .

لاحت على وجهه سحابة حزن عميق وقال بصوت خفيض .

— ألم تلحظ أنه جاء قبل أن يأتى أى فيل آخر ، حتى قبل أن يحل الظلام تماما ، وهو موعد لا تأتى فيه الأفيال ؟ لقد أتى مع الخنازير ، والثيران ، ولم يأت مع بنى جنسه أن مجتمعه قد لفظه .

قلت مجادلا .

ـ لكن القطيع لم يكن موجودا حينما استأثر الفيل بالأرض الملحية، ولاحق حينما حاول طرد الفيلين، ولاشك أن هجوم الفيل القادم عليه لأنه رأى أنه يماثله حجما، وربما لم يرد أن يشارك القطيع ليفسح مجالا لغيره أو خشية أن يحاول الإستئثار بالزعامة دونه .

هز رأسه نفيا .

ـ كلا وإلا لطرد الفيلين أيضا . إن للجماعة ضميراً ، وشعوراً يلفظ الفرد المتفرد ، أعنى الأنانى .

لم يرد على هذا ، وعاد إلى الصمت . كنت مازلت أحاور محاولا استثارته ليروى القصة ، فلم أدعه وصمته ، واتجهت وجهة أخرى .

ـ ترى كيف أصيب الفيل فى ساقه ؟ هل لهذا علاقة بتفرده الآن ؟

ـ من يدرى ؟ ربما كان تفرده هو سبب إصابته ثم كانت إصابته سببا فى ازدياد تفرده .

ـ ماذا تعنى ؟ .

ـ أحيانا تكفى حادثة واحدة يظهر الفرد فيها أنانيته حتى يلفظه المجتمع فإذا ما أحس بذلك ازداد أنانية ، وازداد ابتعادا عن بنى جنسه ، وازدادوا نفوراً منه . حلقة مفرغة لا تنتهى .

ـ إذا أنت تعتقد أنه كان سابقا فردا فى قطيع ثم أراد أن يستأثر بشيء ما فهاجموه وجرح فى القتال وابتدأ تفرده .

أجابنى بحدة لاداعى لها .

ـ أنا لم أقل إنى أعتقد هذا ، كل ما ذكرته هو أنه ربما تكفى حادثة واحدة ليترتب عليها التفرد . لكن هذا مجرد فرض ، وإليك آخر ، لعله كان على حق حينما أراد الإستئثار بشيء ، ولعل القطيع كان على خطأ . وفرض ثالث ، لعله هو الذى كان ضحية . لعل غيره كان أقوى منه استأثر بما لا حق له فيه ، وتصدى له الفيل ،

وخرج من المعركة مهزوماً فطرد من مجتمعه ، أو لعله أخطأ عن حسن نية . هنالك فروض لا حصر لها لا نستطيع أن نرجح أحدها على الآخر .

كما احتد فجأة . هدأ دفعة واحدة ، وقام من جلسته وهو يقول فى هدوء .

— أسعدت مساء .

دون أن ينتظر ردا استدار وسار إلى حجرته . لاح أنه ازداد هرما ، ولاحت عليه امارات اعياء ويأس . أخذت أرقبه من مجلسى لحظات حتى اختفى وهو يعرج فى ظلام الردهة الطويلة . فرد متفرد ذهب لينطوى على نفسه فى ظلام حجرته .

* * *



القبيء

سيدتى . كنت دائما أجبن من أن أجابهك ، وأنا الآن أجبن من أن أراسلك ، سأسطر الحوادث ربما قبلت إحدى الصحف ، أو المجلات أن تنشرها كقصة ، وربما تقرئينها .. وعندئذ ستعلمين .. وعندئذ ستفهمين . لكن لابد لكى أضع الصورة فى إطارها الكامل أن أعود إلى الوراء . إلى أربعين سنة خلت .

ولدت فى قرية نسكرة مهملة ، مثل مئات القرى المتناثرة فى الريف . كنت منذ ولادتى دميما قبيح الوجه حتى أن النفس لتشمئز من النظر إلى .. أصبت بالجدرى فتآكلت وجنتاى وازددت دمامة .. كان الأطفال يهربون منى ، ويرفضون أن ألهو معهم .. حتى والدى كثيرا ما أشاح عنى بوجهه . كان يلاعب اخوتى وحينما أقترب منه يقوم من مجلسه ، ويترك الدار .. لم أعرف عطفا أو حبا ، وحنانا .. إلا من والدتى .

عملت والدتى حتى أرسلنى والدى مكرها إلى إحدى المدارس الأولية . هناك

لاقيت من سخرية زملائى ، وتباعدهم ماجعلنى أفر منها ، لكن مدرسى كان شيخا رحيما .جاء إلى دارنا وحدثنى برفقه ، وأعادنى إلى المدرسة . بذل جهده أن يبعد أذى سائر الأطفال عنى ، ولم يفلح كثيرا ، إلا أنه أفلح أن يحثنى على الدراسة .

لست أريد أن أحادثك عن مدى الوحدة التى كنت أعانيها ، ولا عن شعورى وأنا أرى الناس تتقزز منى ، وتشيح بأنظارها عن وجهى . هذه أشياء اعتدت عليها تدريجيا ، ولم يبق إلا القراءة .. عشت حياتى مع الكتب ، ومنها أخذت كل ما افتقدته من البشر . فالمؤلف ، سواء أكان عالما ، أو أديبا ، لايخاطب الوجوه ، بل يخاطب العقل ، والوجدان ، والأحاسيس .

أراد والدى أن يمنعنى بعد الدراسة الأولية ، لأعمل فى الحقل ، إلا أن مدرسى ، الشيخ الرحيم ، أقنعه بإرسالى إلى المدارس الإبتدائية ، أعطاه نقودا تساعد على احتياجاتى ، وكثيرا ما كان يرسل إلى مايستغنى عنه أنجاله من ملابس .. تفوقت فى دراستى الإبتدائية ، وحظيت بالمجانية ، وكذلك فى الثانوية ، وحان وقت الجامعة .. قبلت فى كلية الطب مجانا .. قامت مشكلة النقود . كان يلزم أن أعيش فى القاهرة ، بعيدا عن أهلى ، ويلزمنى الكتب ، والملابس ، وغيرها من مقتضيات الحياة .

إن أبى فلاح بسيط لايتحمل هذه التكاليف ، أو حتى جزءا منها . وتدخلت والدتى ، وتصدت لحل المشكلة . كانت قد ورثت بضعة قراريط من الأرض ، وجاموسة عن والدها .. عصت زوجها ، وهى التى لم تخالفه أبدا ، وباعت الأرض ، ثم باعت الجاموسة ، وأرسلتنى إلى القاهرة .. بحثت عن سكن حتى عثرت على سيدة تؤجر منزلها المتداعى حجرات للطلبة . حينما رأتنى ترددت ، ثم قبلت أن تؤجر لى غرفة فى قبو تحت الدرج ، لامنفذ لها .. كان لديها حجرة فوق سطح المنزل ، لكنها أبت على الشمس ، والهواء ، والطيور ، وأسكنتنى مع الظلام ، والرطوبة ، والجرذان .

حاولت أن ألتحق بأى عمل كخادم ، أو ماشابه لأساعد أمى ، وأبى ، وأخفف عنهما الحمل إلا أن أحدا لم يقبلنى .. كانوا ينفرون بمجرد النظر إلى وجهى .. مر العام الأول فى الكلية بشقائه وبؤسه ونجحت بتفوق .. كانوا فى ذلك الوقت يمنحون المتفوقين مكافأة شهرية . عشرة جنيهات . وكانت هذه ثروة ضخمة

بالنسبة لى . كنت اقتطع منها نصفها ، أرسلها إلى عائلتى ، وأكتفى بالباقى لطعامى ، وكتبى ، ومصروفاتى .. كثيرا ما اضطررت أن أبيت على الطوى حتى أوفر ثمن كتاب دراسى .

مضت السنة الثانية ، والثالثة ، والرابعة على هذا الحال . انى أذكر أننى لم آكل يوما أكثر من وجبة واحدة ، ولم أبدل ملابسى إلا بعد أن تكاد أن تبلى تماما .. لم أنم على غير حشية واحدة ملقاة على أرض الحجرة ، ولم أتدثر بأكثر من بطانية خرقة لا تكاد تمنح دفئا . كانت الحشية ، ومنضدة متداعية ، ومقعد مهشم ، وكسرة من مرآة هى كل أثاث حجرتى ، كما كانت قلة الماء ، ومصباح جاز ، ووقد جاز ، وحلة ، وكوب ، وملعقة ، هى كل أدواتى . أما مؤنى فلم تكن تزيد على كمية من الخبز ترسله لى والدتى بين الحين والآخر ، وثلاثة كيزان بأحدها بعض الشاى ، وبالآخر بعض السكر ، والأخير الملح .

ثم بلغت السنة النهائية .. فيها رأيتك .. كانت أول سنة لك . أعتقد أنه سقط القول أن أخبرك أننى لم أفكر فى حياتى فى فتاة .. كان الرجال يشمئزون من النظر إلى وجهى فما بالك بالفتيات .. لم يخل قلبى من الأحاسيس ، والمشاعر ، إلا أننى كنت أستبعدها بمجرد أن تبدأ فى مداعبتى .

كثيرا ما كنت أختلس منك النظر دون أن يشعر أحد ، أو هكذا ظننت . كانت هناك عيون أخرى تلاحظ ، وترقب ، وتسخر .. لكننى كنت سادرا فى أحلامى .. أنت ترين حتى القميئون يحلمون .. جاء اليوم الذى رأيتك فيه تبتسمين لى . . لو أن قوة جاذبية الأرض جميعا تجمعت ما كان يمكن أن تثبت أقدامى أكثر مما فعلت هذه الإبتسامة .. سمرت فى الأرض وكأنى نبت عمقت فيها جذوره . . لم أصدق ما رأت عيناى . . وإنى لأذكر أننى نكست وجهى إلى أسفل . . خشية أن تنظرى إليه ، وتشمئزين .

لست أدرى كيف وصلت إلى حجرتى المظلمة .. آسف إلى جنتى المنيرة . . لقد أحالت ابتسامتك الظلام ضياء . . والبرد دفئا . . حتى أحلامى تغيرت من مجرد أحاسيس ، وتمنيات إلى آمال ، وأمانى . . شطحات أوهام .. قد تتصورين

أننى أبالغ فى وصف شعورى ، لكن تذكرى أنه لم توجه إلى فى حياتى سوى نظرات الإشمئزاز والتقزز بل ، والهلع .. لم أر على فم سوى شفقة أو خوف ، أو .. سخرية .

أحسبنى لم اصدق تماما أن هذه الإبتسامة كانت موجهة إلى .. ومع هذا فقد خادعت عقلى دونها .. عشت يومى وليلى فى الخداع .. تكررت ابتسامتك مشجعة ، ومع هذا فقد استمر عقلى يفكر .. لم أجرؤ أن أوجه إليك كلمة .. او أرد الإبتسامة ..

من القروش القلائل التى كنت أصرفها على مأكلى بدأت أدخر .. كم ليلة بتها على الطوى .. ومع هذا فلم أشعر .. كنت سعيدا أحلق فى عالم الخيال . خلال أسبوعين تجمع لدى ثلاثون قرشا فذهبت بها إلى سوق للملابس القديمة .. واشتريت قميصا ، كما أصلحت حذائى ونظفته ..

اخيرا جاء اليوم الذى رأيتك فيه تسيرين نحوى .. كدت أجرى بعيدا لكننى لم أستطع أن أنقل قدماى .. سمعت أنغاما تخرج من فمك تواعدنى فى اليوم التالى فى حديقة الحيوان .. مثلما لم تصدق عيناى ، كذبت أذناى . ماكان يمكن أن يكون هذا صحيحا .. ومع هذا فقد رأت عيناى .. وسمعت أذناى .

راعنى خاطر .. بحثت فى جيوبى ولم أجد معى سوى ثلاثة قروش .. هى كل مابقى لى من نقود أتقوت بها خمسة أيام إلى بداية الشهر التالى .. هرعت إلى غرفتى وأخذت منها قميصى القديم ، وصندلا ، وعجلت إلى سوق الملابس القديمة .. لم يرض التاجر أن يشتريها فى أول الأمر .. وحينما ألححت عليه .. أعطانى خمسة عشر قرشا .. عدت إلى حجرتى أرفع الحشية لاذهب بها إلى تاجر أثاث قديم . بعتها له بخمسين قرشا .. ماضرنى لو افترشت الارض .. إن الصيف على الأبواب .

رأيتك تنتظرين عند الجبلاية حسبما وعدت ، وهرعت نحوك ، ملاحقا قلبى .. هنا ظهر زملاؤك بين الأشجار التى اختفوا وراءها .. شباب مرح رأى فرصة فريدة للسخرية .. تعالت ضحكاتهم تطن فى رأسى .. وسمعت سخرياتهم اللاذعة .. ولعلك تذكرين ماوصفونى به ..

توقفت فى إندفاعى ولم أشعر بأننى حى ينبض له قلب .. ربما كان قد سبقنى إليك .. ثبت نظرى لايتحرك عن وجهك .. رأيتك وقد علاك العبوس ..

كنت كمن أفاق من حلم مرعب ليرى أن الدمية التى يلهو بها ليست دمية .. إنما هو بشر حى .. له أحاسيسه ومشاعره ، كأى بشر .

لكن لاتبتئسى .. فلو علمت مقدار السعادة التى منحتها لى ابتساماتك لاطمأن قلبك الحنون .. إن البؤس صنوى .. وماعلمت سعادة حقة إلا فى ذلك السراب الذى وهبتيه لى .. سراب حقا .. لكننى عشت فيه .. أرجوك لاتبتئسى .. انى لاأرضى عما حدث تبديلا .. ماضرنى أن أكون ملهاة لبعض الشباب .. لقد قضيت حياتى جماء أملوحة سخيفة مقيته .

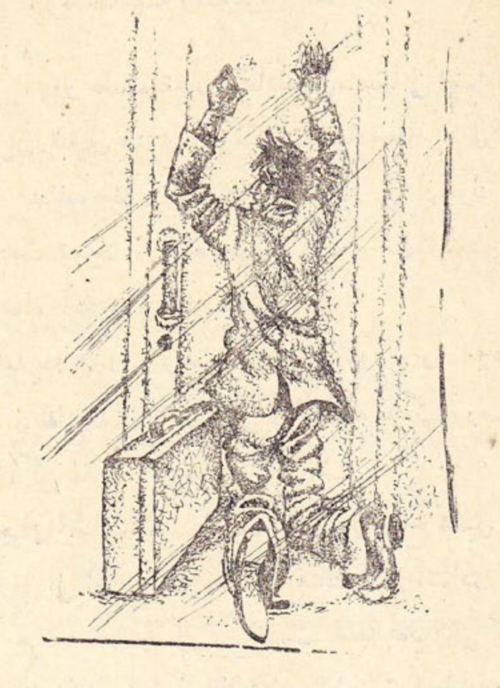
إعتكفت تماما بعد هذا . ونلت أجازة البكالوريوس .. وعينت نائبا .. منذ ذلك الوقت .. تفاديت أن تريني حتى لا أؤلمك بذكرى ربما كانت سيئة بالنسبة لك .. ولا أكن لها إلا كل حب .

بدأ التغير فى حياتى أيضا منذئذ .. صممت أن أكون جراح تجميل .. كان تفوقى مدعاة لأن يرسلونى إلى الخارج فى بعثة .. هناك .. علم أستاذى بما أعانيه .. فأجرى لى عدة جراحات للتجميل .. انضمت الشفة العليا التى كانت مفلوجة من الوسط .. واعتدل الأنف المعقوف الملتوى .. واختفت كل الندوب التى تركها الجدرى فى وجنتى . حتى عيناى وأذناى أجريت فى فيها جراحة .. لم أبتغ أن أكون وسيما .. إنما أردت ألا يشمئز منى البشر .

عدت إلى القاهرة .. ومرت سنوات من العمل الشاق .. لم تكن المادة أساس عملى إنما أن أرفع بعض البؤس عن الناس حتى لايعانوا ما عانيت .. ومع هذا فقد أتانى المال بوفرة .. لم أفكر فى النساء .. إذ اعتدت أن أحيى منفردا .. فى رحاب السعادة التى منحتيها لى .. والتى كانت سرابا ..

جاء يوم إستدعيت فيه لأجرى جراحة تجميل لسيدة انقلبت بها السيارة .. قتل زوجها فى الحادث ، واشتعلت السيارة نارا شوهتها .. عرفتك رغما عما أصابك .. ولم تعرفينى .. رأيتك مكتئبة باكية ، وقد إنهار صرح حياتك .. أو هذا ماكنت تظنين ..

كادت نفسى أن تطير شعاعا حينما رأيتك تعانيك بعض ما عانيت .. لا .. لا تخافى .. ستعودين سيرتك الأولى .. لا .. لا تبتئسى . إنى أجبن من أن اواجهك .. وأجبن من أن اراسلك .. لكن .. رباه .. آه لو تقرأين ..



حذر الموت

سار الشرطى العجوز متحاملا . كانت ليلة لم تشهد لها الاسكندرية مثيلا . ليلة قارصة البرد ، هوجاء الرياح عاصفة الأمطار . ضم أطراف معطفه الثقيل حول جسده فى محاولة للدفء ، ونقل خطواته المتثاقلة ، يقاوم الرياح . أخذ يتنقل من حانوت إلى آخر يتحسس الأقفال ، والأبواب ليتأكد من أن أصحابها لم ينسوها مفتوحة ، أو أن يدا غريبة لم تعبث بها . كان يتمتم بين وقت وآخر ساخطا

- يالها من ليلة !!

فى مثل هذه الليلة كان يتمنى لو أنه إستمع إلى رؤسائه ، وإستقر فى وظيفة كتابية فى القسم ، لكنه كان يحب منطقته ويحب أهاليها ، عرفهم ، وعرفوه طوال السنوات الثلاثين ، أو تزيد التى قضاها فى الخدمة . كان دائما يرجو رؤساءه أن

يتركوه فى « دوريته » ولم يتحرج مطلقا أن يأخذ وردية الليل . على أنه لا يذكر أنه شاهد ليلة عاصفة مثل هذه .

مضى فى الطرقات يتنقل من منزل إلى آخر ، ومن حانوت إلى حانوت . إنه سمع من زملائه فى القسم أن هناك عصابة من اللصوص ترتكب جرائمها فى المنطقة المجاورة ، وهو لا يريد أن تهاجم سكان منطقته . منذ ثلاثة أيام فقط قتلوا رجلا وزوجته ، وجردوهما من كل ما يمتلكان . وقف عند مفترق طرق ينظر إلى الشوارع الخالية من المارة مع أن الليل كان ما يكاد يبدأ . إن العاصفة أجبرت الناس على أن يستقروا فى بيوتهم ، وأن يغلقوا نوافذهم . لم ير ما يريب فواصل سيره الوئيد يكمل « دوريته »

حملته ساقاه الواهنتان إلى إحدى الطرق الجانبية ،وتوقف عند منزل صغير من طابقين . كان يعرف صاحبة المنزل كما يعرف جميع سكان الحى . هى أرملة جاوزت السبعين ، مات زوجها وهى دون الأربعين ، وهجرها أبنها الوحيد بعد وفاة أبيه بسنة أو اثنتين ولم يعد. كانت سيدة طيبة طالما دعته إلى تناول كوب شاى ، وكثيرا ما أعطته بعض المأكولات . فكر أن كوب الشاى الآن قد يعيد بعد الدفء إلى جسده البارد المكدود .

رأى ضوءا فى الدور الأرضى فحمد الله . إن السيدة لم تصعد بعد إلى الطابق الثانى لتنام ، وما زال الليل فى صدره ، فليس ثمه ما يمنع من تناول كوب الشاى . إذا كان قد ساوره بعض التردد فإن إشتداد الرياح ، والأمطار دفعه إلى أن يقر رأيه . فتح باب السور الخارجى الصغير ، وسار الخطوات القليلة إلى درج المنزل . ثلاث درجات إرتقاها ، ووضع يده على الجرس . لم يقف طويلا حتى سطع نور أضاء المكان ، ولا بد أن السيدة نظرت من العين السحرية ، ورأته ، إذ فتحت الباب ودعته إلى الدخول .

أغلق الباب وراءه بسرعة ليمنع دخول الرياح والأمطار ، ووقف فى الردهة

الداخلية يتقدم للسيدة العجوز . كانت ضئيلة الجسم ، بيضاء الشعر ، سمحة المظهر ، ما زال فى وجهها مسحة من جمال رسم عليه الدهر خطوط الهرم . قالت بصوت لطيف مرحبة

— تفضل يا حضرة الشاويش ، سأصنع لك كوبا من الشاى

عاشت معظم حياتها وحيدة ، وليلة مثل هـــذه تزيد المرء شعورا بالوحدة ، ولهذا سرها أن يأتى الشرطى ، لتحادثه ، ولو لدقائق تزيل فيها وحدتها . تركته وسارت إلى جانب من المنزل حيث المطبخ لتعد الشاى . خلع معطفه المبتل، وعلقه على مشجب إلى جوار الباب ، ثم جلس على أحد المقاعد فى الردهة . كان الجو دافئا فى المنزل ، ولابد أن السيدة قد أشعلت المدفئة الكهربائية منذ مدة طويلة .

عادت السيدة بكوبين ناولته أحدهما ، ثم جلست فى مقعد . شعر بالحرج من فرض نفسه فقال مبررا مجيئه ، وهو يرتشف من الكوب .

— الواقع أنى أتيت لأخبرك ألا تفتحى الباب لأحد . إن هذه الليلة مرتع اللصوص والقتلة .

قالت السيدة مؤمنة .

— إنها ليلة مرعبة لم أشهد لها مثيلا على ما أذكر .

قال وهو يأخذ رشفة كبيرة بصوت عال يؤكد أهميته .

— إن هناك عصابة اتخذت المنطقة المجاورة مسرحا لجرائمها ، ومنذ ثلاثة أيام فقط قتلوا رجلا وزوجته ، ونهبوا منزلهما ، لهذا رأيت أن أحذرك من فتح البـــاب .

— شكراً .. إنى لا أفتحه إلا بعد أن أتأكد من معرفتى للطارق .

— ويستحسن أيضا أن تدعى النور الخارجى مضيئا طول الليل . إنه لن يكلف شيئا ، وهو عموما يبعد اللصوص .

شكرته مرة ثانية ، ووعدته أن تفعل ذلك. أتم إحتساء الشاى فسألته إن كان

يريد مزيدا ، ورفض ، مقررا أن عليه يتم ورديته . إرتدى معطفه الثقيل ثم قال :

— إعلقى الباب ورائى بالمزلاج ، وتأكدى من غلق جميع النوافذ ، والأبواب خاصة فى الدور الأرضى واتركى النور الخارجى مضاء ، وعلى أى الأحوال فإننى أيضا سأمر قبل إنتهاء نوبتى . أسعدت مساء :

خرج ، واوصدت الباب وراءه بسرعة وقبل أن ينزل الدرج سمع صوت المزلاج ، رأى أن العاصفة تزداد شدة ، وتحولت الأمطار إلى برد فتمتم ببضعة كلمات لنفسه ثم استأنف السير .

نفذت السيدة وصية الشرطى تماما . دارت فى أنحاء الطابق الأرضى : وتأكدت من أن جميع النوافذ ، والأبواب محكمة الإغلاق . وتركت النور على الباب الخارجى مضاء ، وتناولت عشاءها ، ثم أطفأت الأنوار الداخلية ، وصعدت الدرج إلى الطابق الثانى لتنام . كانت العاصفة ماتزال تهدر ، ترددت أصوات الرعد تهز المنزل ، بينما التمع ضوء البرق بين الحين والآخر .

دخلت حجرة النوم واصطكت أسنانها من البرد . أسرعت توقد المدفأة الكهربائية ، وتغلق الباب ، ثم دلفت إلى فراشها تلف جسدها الواهن بالأغطية . مع هذا فإن البرد كان من الشدة بحيث مضت مدة طويلة قبل أن يغشاها النوم . استيقظت على أصوات العاصفة ، أو لعلها أصوات أخرى أيقظتها . شعرت بوجهها خارج الغطاء يكاد أن يتجمد من شدة البرد فالتفتت إلى المدفئة وراعها أنها غير مشتعلة . مدت يدها توقد النور الكهربائى إلى جوار فراشها لكنه لم يضىء . إذاً فقد انقطع التيار الكهربائى . خيل اليها تسمع طرقات على الباب الخارجى ، وكأنما صوت شخص ينادى . لكن أصوات الرعد ، والرياح منعتها من التأكد. ترددت أن تترك فراشها لتتحقق مما خيل إليها ، ثم تذكرت كلمات الشرطى عن عصابة القتلة ، واللصوص ، تجوس المنطقة ، وتملكها الرعب . أخفت وجهها تحت الغطاء فى محاولة للدفء ، وصمت أذنيها عن الأصوات الخارجة لتنام . جافاها النوم ، ولم تنقطع الأصوات .

تركت فراشها مكرهة ، وسرت فى بدنها رعدة شديدة . إرتدت معطفاثقيلا، واتجهت إلى النافذة . أضاء البرق ، وهدر الرعـــد عدة مرات قبل أن تكمل الخطوات القلائل ، هالها أن ترى على ضوء البرق أن الأرض قد اكتست بطبقة بيضاء من الثلج . رأت شيئا آخر أثار الرعب فى قلبها . رأت شبحا طويلا يعالج أحد النوافذ فى الطابق الأرضى . قبل ان تتأكد ، ذهب ضوء البرق . لم تكن تستطيع ان تفتح النافذة لتحسن الرؤية ، وحتى لو استطاعت فإن الخوف قد جمد مفاصلها ، ومنعها عن الحركه .

حاولت من ثنايا الأخشاب ان تنظر . والتمع البرق ، ورأت ، وتأكدت . لم تستطع ساقاها ان تستمرا على حملها فأسرعت إلى الفراش . وتهاوت عليه . كانت الحجرة باردة مظلمة لايضيئها إلا قبس من ضوء البرق ؛ يتسلل بين الفنية والأخرى خلال أخشاب النافذة . لبثت دقائق فى مكانها تفكر لكنها وجدت ان عقلها المشتت لايستطيع التركيز . لم تكن هنالك فائدة من صراخها ، حتى لو فتحت النافذة فإن صوتها سوف يضيع فى أصوات العاصفة ، كما أن الجيران قد ناموا ، ولاشك أن جميع نوافذ منازلهم مغلقة .

دعت إلى ربها مبتهلة أن يأتى الشرطى فى مروره كما وعد ، وإن كانت تشك فى أنه قد قبع فى مكان ما يحتمى من العاصفة . لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تذهب تختلس النظر بين أخشاب النافذة . تحاملت على نفسها ، ونظرت . لالم يبتعد اللص . كان مايزال يعالج النافذة وبدا أنه قد فقد سيطرته على أعصابه إذ كان يحاول فتحها عنوة .. لم تكن تهتم كثيرا بهذا ، حتى إذا فتحها فإن وراءها قضبانا حديدية . وحمدت الله أن استمعت إلى نصيحة إحدى جاراتها وتثبيت القضبان .

أرادت أن تعرف الوقت ، وخشيت أن تشعل مصباحا أو شمعة ، فيرى اللص الضوء ويعلم بوجودها فى المنزل . ربما هو يظن أن ليس به أحد . ألا يمكن أن يكون شخصا عاديا يطلب مأوى أو زادا ؟

طمأنها هذا الخاطر نسبيا ، لـكنها عادت وتذكرت أقوال الشرطى ، ثم تذكرت محاولات الرجل المستمرة فى إقتحام النافذة ، فاستبعدت الرأى . ومع هذا عاد التفـكير يلح عليها . ربما كان قلبها الطيب قد لان لحال المقتحم ، وودت لو كان معها شخص تعتمد عليه إذا لفتحت الباب وسألت الغريب إن كان يريد المـأوى والطعام . كانت ترتعد من البرد ، والخوف ومع هذا تحاملت على نفسها وعبرت الحجرة على أطراف أناملها ، وكأنما سوف يسمع المقتحم وقـع أقدامها وسط العاصفة .

نزلت الدرج ، وراعها أن رأت النافذة مفتوحة . أضاء البرق وصرخت حينما شاهدت شبحا هائل الحجم ، أو هكذا خيل إليها ، يمسك القضبان الحديدية بيديه فى محاولة مجنونة كأنما يبغى إنتزاعها .

راودها خاطر جنونى أن سوف يفلح فى محاولاته ،وأنه سوف يقتلها لا محالة . عليها أن تفر منه وأن تحصن نفسها . عادت أدراجها بسرعة إلى حجرتها ،وأغلقت الباب ، ثم إرتمت على فراشها ترتعد ، وتنتحب . كانت تشعر برأسها يلتهب من الحمى ، ومع هذا فإن أطرافها كانت فى برودة الثلج . لم تفلح الأغطية فى تدفئتها كما لم يفلح فراشها فى إدخال ولو بعض الطمأنينة عليها . لم تدر ماحدث بعد ذلك . لعلها قد أغمى عليها،أو ربما تـكون قد نامت إعياء ، أيا كان حينما فتحت عينيها ، كانت العاصفة قد هدأت ، وبزغ ضوء النهار .

بقيت لحظات فى فراشها قبل أن تستـكمل إنتباهها . عاودتها ذكرى الليلة الماضية دفعة واحدة ، وحاولت النهوض فلم تستطع . جاءتها أصوات طرقات متتالية على الباب الخارجى،ولم تسعفها قواها على الحركة . فتحت فمها فى محاولة للصراخ إلا أن حنجرتها الضعيفة لم تخرج سوى أصواتا مكتومة ضاعت مع الطرق المستمر . كانت الحجرة دافئة إذ لاحظت أن للدفاية الـكهربائية عادت إلى العمل ومع هـــذا فإن فـكيها ظلا يصطفقان ، وجسدها الضعيف يرتعد .

أيقنت أن الحمى قد أصابتها ولاشك من جراء تعرضها للبرد فى الليلة الماضية ،

وما لاقته من رعب وإرهاق . لم تكن عظامها العجوز لتتحمل . جاءتها أصوات معاول تنهال على الباب ، ولا بد أنهم كانوا يحطمونه ، لكن الاصوات كانت تأتى من بعيد ، وكأنما هى تصدر من مكان آخر ، ولا يصلها منه الا صدى يسير . مضت دقائق ، ووقفت المعاول . بعد لحظات فتح باب حجرتها ثم سمعت أصواتا بشرية ، ورأت أشباحا تتحرك ، وتقف عند الفراش . لم تكن عيناها الضعيفتان تميزان الأشخاص ، ولا كان عقلها المحموم يستطيع أن يستوعب الموقف . أحست بضعف شديد يسرى فى أنحاء جسدها النحيل ، لكنه ضعف تصحبه راحة غريبة ، ثم لم تعد تدرى شيئا مما يجرى حولها .

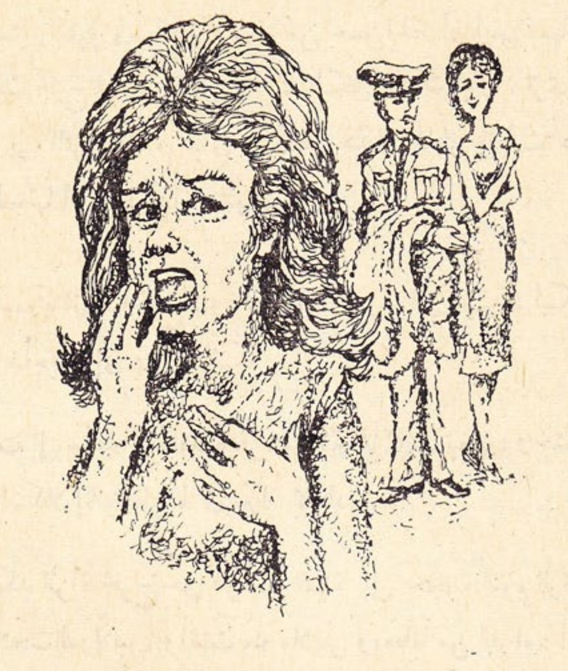
* * *

فى الردهة جلس الشرطى ، وشخص آخر يتبادلان الحديث . تكلم الرجل

— إن السيدة مريضة جدا . لقد أصيبت بالتهاب رئوى لا أعتقد أنها سوف تنجو منه . على فكرة هل عرفتم شخصية الرجل الذى كان متعلقا بقضبان النافذة ؟ لقد كشفت على جثته ، ولا شك أنه مات متأثرا بصقيع الليلة الماضيـــة ، كان قلبه ضعيفا ، ولم يتحمل . غريب أن يكون اللص ضعيف القلب ؟ !

جاء صوت الشرطى متهدجا من الإنفعال وهو يجيب

— كلا ياسيدى الطبيب . لم يكن لصا . لقد كان ابن السيدة الذى هجرها منذ ثلاثين سنة تزيد ، ولم يعد إلا الليلة الماضية .



عملية تبادل

وقفت أمام المرآة تتأمل نفسها . طالعها القوام المتناسق ، والوجه الجميل .
دارت حول نفسها تتطلع إلى كل جزء من زينتها وملابسها . واطمأنت أنه لايوجد ما يعيبها . كانت سعيدة بجمالها ، سعيدة بحياتها . نظرت إلى الساعة الثمينة في معصمها . لم يبق على موعده أكثر من دقائق ، ومع هذا فلم تتعجل .
لايضير الرجال أن ينتظروا قليلا كلما طال انتظارهم إزداد شوقهم .

نادت على خادمتها .

– سميرة !

بعد لحظات دخلت فتاة في أوائل العقد الثالث . نظرت اليها المرأة ودارت الأفكار سريعة في رأسها . إن الفتاة لابأس بجمالها ، وهي تضارعني جسدا .
لابد أنها تستعمل أدوات زينتي ، ولا عجب أن كانت تستعير ملابسي كلما أمكنها .

لابأس أن هذا يجعلها دائماً فى كنفى ولن تشى لسيدها عن حركاتى ، أما مالا أود أن تستعيره فهو فى مكان أمين . من حسن الحظ أن ليس معها مفتاح للباب ، وإلا كانت تخرج بالملابس . إنها فتاة ، ولكل الفتيات شبان . ترى من هو فتاها ؟ هل يأتى إلى المنزل أثناء غيابى ؟ أقلقها هذا الخاطر فقطبت عن حاجبيها ، وجاءت لهجتها أشد مما كانت تنوى .

— سميره انى سأخرج ، وغالبا سوف أعود قبل سيدك لكن إذا حدث وتأخرت فأخبريه إنى عند الحائكة .

نظرت إلى ساعتها . لقد تأخرت أكثر مما كانت تبغى ، وخشيت أن تكون قد بالغت . كلا إنه ينتظرها فى منزله كالعادة .

لم تكد المرأة تخرج حتى هرعت الفتاة إلى حجرة النوم الرئيسية . بمفتاح مصطنع فتحت الدولاب ، وانتقت منه ملابس ومعطفا من الفراء : أخرجت الأشياء ثم جلست للزينة . فى أقل من نصف ساعة خرجت من الشقة إمرأة أخرى لو أنك رأيتها ماعرفت فيها الخادمة .

* * *

عادت المرأة متأخرة لتجد أن زوجها ينتظرها ثائراً . سألها أين كانت فأخبرته أنها ذهبت إلى الحائكة . كذبها قائلا إنه اتصل بها هناك ولم تكن موجودة ردت عليه بأنها استبدلتها بأخرى استصحبتها إليها إحدى صديقاتها ، وانفجرت مراجل غضبه أخبرها بأن الفتاة الخادمة أشرف منها ، وأنها لاتستحق أن تكون زوجة لرجل محترم . أعلنها أنها لن تخرج بعد ذلك إلا بإذنه ، وإن علم أنها فعلت غير ذلك فسوف يكون هذا نهاية عهدها بالزوجية .

قضت ليلتها مسهدة تفكر . لم يكن يعنيها غضب زوجهـــا فإنه كثيراً مافعل ذلك ، ثم ينسى غضبه فى غمرة انغماسه في عمله : سوف تمر هذه الثورة كما مرت غيرها ، سحابة صيف . لكن الجديد فى كلامه هو إشارته إلى سميرة ، الشغالة ، هذه هى المرة الأولى التى يقارن بينهما . ترى هل هنالك سبب ؟

أمضها التفكير ، إنها سعيدة كما هى لاتبغى طلاقا ، فزوجها رجل أعمال ناجح لم يبخل عليها بشيء . حق الأولاد ؟ حينما أظهرت نفورها من الإنجاب لم يضغط عليها ، وترك الزمن أن تعدل رأيها . لم تكن تحب أن تنجب ، على الأقل ليس الآن. لم تود أن تنتفخ بطنها ، ويفسد جسدها الجميل . لم ترد طفلا ترضعه ، وترتبط به ، ويأخذ من أوقات لهوها، ومجونها . لكن مقارنته إياها اليوم بالفتاة أقلقتها . هل آن الأوان أن تنجب ، وتضحى بالكثير من وقتها ؟ !

استبعدت التفكير فى الأطفال . إنها سعيدة كما هى ، ومازالت شابة صغيرة أمامها الكثير . لن تضحى بسعادتها بمثل هذه السهولة . كل ماهنالك ، عليها ان تتخلص من الفتاة ؟ ترى هل تأمل ان تحل محلها ؟ كادت ان تضحك من الفكرة ، ثم عاودت رأيها ، ولم لا ؟ إن الفتيات لهن افكار غريبة .. استعادت اوقاتا كثيرة تركت زوجها بمفرده مع الخادمة . ترى هل نشأت بينهما علاقة ؟ راح عقلها يصور لها اشياء لاوجود لها . لفته ، أو نظرة ، أو كلمة طيبة حورتها إلى تأويل يساير طبيعتها .

إستقر رأيها على التخلص من الفتاة . إن معنى هذا أنها ستقوم بأعباء المنزل بمفردها ، لكن هذه تضحية بسيطة ، يقابلها أنها سوف تكون أكثر حرية ، وأكثر انطلاقا . إنها لا ترغب أن تطلع الفتاة على حركاتها وسكناتها على أى الأحوال. سوف تفتعل غضبه وتطردها . هل سيقبل زوجها هذا ، أم أنه سيثير تحديا سافرا ؟ !

عاودتها الذاكرة . لقد حدث قبل ذلك أن ثارت على الفتاة ، وهدأ زوجها من ثورتها . قال إن الفتاة عاملة مجدة ، وهى أمينة ، ونظيفة ، وليس من اليسير فى هذه الايام أن يعثر على مثلها . تكلم مع الفتاة المنتحبة ، واسترضاها ، وعادت الأمور إلى مجراها .

لقد مضت هذه الواقعه ولم تولها إلتفاتا ، ولم تحملها أى مغزى حتى الآن. كم هى ساذجة بسيطة ؟ إن الأمر لم يكن لصاحتها إذاً ، وإنما كان يريد الإبقاء على الفتاة لأغراضه الشخصية ؟

ترى منذ متى بدأت هذه العلاقة ؟ ! هنا فى بيتها وتحت سمعها وبصرها ! ؟ يالوقاحة الرجل وفجور الفتاة ؟ ! سوف تلقنهما درسا لن ينسياه .

استيقظت مبكرة واعتنت بأن تعد حاجيات زوجها كأفضل ماتفعل زوجة مخلصة . رافقته إلى باب الشقة وقبلته ، وبدا عليه أنه نسى ثورته فى الليلة الماضية ، وصفح . لم تتعجل أمورها تركت الفتاة تؤدى أعمال المنزل الصباحية ، وجلست تتزين فى حجرتها . قبيل الظهر نادت .

— سميرة .. هل يمكننى أن أطلب إليك خدمة ؟

أحنت الفتاة رأسها مجيبة بأنها على إستعداد لأن تفعل ماتشاء سيدتها .

— إسمعى . أنت تعرفين أن زوجى قد حرم على الخروج إلا بإذنه . وأنا فى حاجة إلى المال إئتنى بصندوق المجوهرات .

فتحت الفتاة الدولاب منصاعة ، وأحضرت الصندوق . تشاغلت المرأة بزينتها ، وتصفيف شعرها وأردفت :

— افتحيه وأخرجى منه الخاتم الماسى ، والساعة المرصعة . أجل هما هذان . هل تستطيعين الذهاب إلى الصائغ تشابرجيان لتقدير قيمتهما : اريده أن يكلمنى تلفونيا ، فإن وافقنى السعر أعطاك المال ، وإلا عدت بهما ثانية ، لأعرضهما على صائغ آخر . أرجو ألا تفقديهما ، واحذرى اللصوص . أرجعى صندوق المجوهرات إلى مكانه واغلقى الدولاب .

فعلت الفتاة ماأمرت به . فرحت بالمهمة إذ كان عليها أن تؤدى بعض الأعمال الخاصة بدورها . لقد وفرت بعض المال وودت أكثر من مرة أن تستأذن من سيدتها لتشترى ذهبا . أسرعت بالخروج ، ولم تكد تفعل حتى قامت السيدة من مكانها وأدارت المفتاح فى قفل الدولاب محاذرة ، ثم سحبته . ذهبت إلى المطبخ وأخرجت سكينا كبيرا عالجت به الدولاب حتى فتحته عنوة دون أن تمسه . وأعادت السكين إلى مكانه بعد أن مسحته جيدا ثم رفعت « فيشة » التلفون .

إرتدت ملابسها بسرعة غير معتنية بمنظرها وخرجت . ثم توجهت إلى صديقة تثق بها . انتظرت مدة ثم إتصلت بزوجها تلفونيا ، ونكرت صوتها وهى تخبره أن زوجته ليست بالمنزل ، وأنها لدى عشيقها . جن الرجل ، وإتصل بمنزله لكن أحدا لم يرد عليه فترك عمله ، وتوجه إلى المنزل .

لم يجد أحدا ، وفوجىء وهو فى غرفة النوم بالدولاب مفتوحا ، ولم يحتج إلى وقت طويل ليعلم أن بابه قد فتح عنوة . إتجه إلى الهاتف ليطلب الشرطة ولم يجد به حرارة . لاحظ أن الخادمة متغيبة فقرر البقاء بالمنزل حتى تعود زوجته ليعلم منها أين كانت ، وماذا ينقص من مجوهراتها .

جلس قلقا لا يدرى كيف يفكر ، أفى زوجته الخائنة ، أم المجوهرات الضائعة . تناوبته الأفكار السوداء ، لكن لم يمض وقت طويل حتى سمع الباب الخارجى يفتح ، وجاء صوت زوجته تخاطب شخصا آخر .

— أدخلى ياسميحة . إن زوجى لا يأتى الآن ، وسنعد طعام الغداء سويا . . سميرة . . سميرة . . أين أنت ؟ .

أظهر نفسه للسيدتين . كان يعرف المرأة الأخرى ويعرف زوجها ، ولا بأس إن كانت زوجته قد ذهبت إليها كما هو واضح ، ويمكن مؤقتا أن يغض الطرف عن مخالفتها أمره . أبدت زوجته دهشتها لوجوده قبل موعده ، وسألته عن الخادمة . بهدوء طلب منها أن تصحبه إلى غرفة النوم ، واعتذر للضيفة .

— آمال إن الفتاة يبدو أنها سرقت بعض مجوهراتك ، وهربت ، هل تعرفين ماذا ينقص ؟

بيد مرتعشة تناولت صندوق المجوهرات وفحصت ما بداخله .

— أجل الخاتم الماسى ، والساعة المرصعة التى أهديتنيها فى عيد زواجنا الاول .

— يجب أن نبلغ الشرطة فورا . . سأذهب إلى القسم .

— لماذا لا تتصل بهم تلفونيا ؟

— إن التلفون عاطل .

مدت يدها إلى السماعة ترفعها ، وكأنما اكتشفت شيئا إلتفتت إلى زوجها وثلة
— إنه ليس عاطلا إن الفيشة منزوعة .. هاهى الحرارة .

لم يكونا فى الواقع فى حاجة إلى الإتصال بالشرطة إذ أن جرس الباب الخارجى دق ، وحينما فتح الزوج الباب ألفى ضابطا من رجال الشرطة ، وجنديا يقبض على الفتاة كما شاهد رجلا آخر . كانت الفتاة تبكى وتحاول الكلام ، ونهرها الضابط . إستأذن فى الدخول ودلف الجميع إلى حجرة الصالون . بدأ الضابط بالكلام فقال مشيرا إلى الرجل

— إن السيد تشايرجيان صائغ وقد أتته هذه الفتاة ظهرا تحاول أن تبيع خاتما ، وساعة ثمينين .حينما سألها عن مصدرها إدعت أن زوجتك قد طلبت منها بيعهما ، وتأكيدا لكلامها أعطته رقم هاتفكم . حاول الصائغ الإتصال بكم أكثر من مرة ، ولم يفلح فشك فى أن تكون الفتاة قد سرقت المجوهرات فإتصل بنا .. والسؤال الآن هل طلبت السيدة من الفتاة بيع المجوهرات ؟

تكلم الرجل فى هدوء

— اعتقد أنه لا داعى لسؤال زوجى . أنها كانت فى الخارج ، وحينما عدت لم تكن موجودة ،ووجدت أنا باب الدولاب مفتوحا عنوة ،.وكنت فى سبيلى إلى الاتصال بكم . أما التلفون فقــد كانت الفتاة من المهارة بحيث رفعت الفيشة ومن البدهى أن يضرب الجرس دون أن يجيب أحد . لعلها إدعت أن سيدتها خرجت بعد أن أوصتها ببيع المجوهرات. أنها ماهرة ولولا يقظة الصائغ لافلتت من العقاب .

صرخت الفتاة مدعية أنها مظلومة، وأن ماقالته هو الصدق . طلبت سؤال السيدة ومواجهتها . أسكتها ضابط الشرطة ثم وجه كلامه إلى الرجل

— لاشك ياسيدى أنك صادق لكن أعتقد أنه من الواجب أولا سؤال السيدة ومواجهتها بالمتهمة ، وثانيا معاينة الدولاب .

انتقل الضابط والرجل إلى غرفة النوم، وتركا الفتاة المنتحبة مع الجندى ، والصائغ . أتم الضابط المعاينة واثبتها فى محضر ، ثم طلب أن تواجه السيدة بأقوال المتهمة .

جاءت المرأة ، وما أن رأتها الفتاة حتى حاولت الركوع عند قدميها لولا أن يد الجندى شددت القبضة على ذراعيها . صرخت الفتاة بين دموعها .

— سيدتى إخبريهم أنك أنت التى أرسلتنى لأعرض المجوهرات للبيع .. إخبريهم إنى بريئة مما يزعمون .. أرجوك ياسيدتى

ببرود شيطانى نظرت إليها المرأة .

— أنا طلبت منك عرض المجوهرات ؟! طبعا لا . ومن الذى فتح الدولاب عنوة ؟ كلا عليك أن تجدى وسيلة أخرى للافلات من جريمتك .. لم أكن أعتقد مطلقا أنك لصة .

تدلى فك الفتاة دهشة واتسعت حدقتاها رعبا . نسيت فى دهشتها حتى البكاء والولولة . تدخل الضابط وقال بلهجة عملية .

— أظن أن هذا ينهى الموضوع . الآن إذا أذنتم لنا أن نأخذ أقوالكم حتى لا نزعجكم بالانتقال إلى قسم الشرطة ..

جلسوا يستكملون المحضر . لم تتكلم الفتاة بعد هذا ، وإن إستمرت تبكى بكاء العاجز غلب على أمره . وإستأذنت الضيفة صديقتها ، وخرجت .

دق جرس الباب وهم ما يزالون فى صدد إستكمال المحضر ، وإستأذن صاحب المنزل وذهب ليفتح . وجد أمامه رجلا فى ملابس مدنية يتبعه شرطيان ، فنظر إليهم مستفهما وتكلم الرجل بلهجة رسمية

— هل السيدة آمال .. تقطن هنا ؟

— أجل إنها زوجتى .. لكن الموضوع الآن فى يدى الشرطة فعلا ولست أدرى من اتصل بكم

— أى موضوع ؟

— موضوع السرقة طبعا هل هنالك موضوع آخر ؟

— أنا ... ضابط المخدرات ولا علاقة لى بالسرقات .

— مخدرات ..؟ ايه مخدرات ..؟ ماذا تعنى ؟

— إن معى أمراً بالقبض على السيدة آمال ... واذنا بتفتيش المنزل . هل تسمح ؟

— إن آمال زوجتى .. لابد أن هناك خطأ .. لا يمكن ياحضرة الضابط لا .. لا .. إن هنالك خطأ .

كانت لهجة الضابط فى هذه المرة أقرب إلى الصرامة فى أدبه البارد

— هل تسمح ؟

كالمذهول تنحى الرجل عن الباب ، ودخل الضابط يتبعه الجنديان . إتجه الضابط دون تردد إلى حيث جلست السيدة . حى زميله ثم أمر الجنديين بالقبض عليها .

وقفت المرأة مذهولة متلعثمة

— لماذا ؟ تقبض على ؟ ماذا فعلت ؟

— لأنك اشتركت مع اسماعيل المناوى فى تجارة المخدرات وتوزيعها

— أنا ؟ ! ... أنا لا أعرف الرجل بل ولا أعرف إسمه .

— لا داعى للإنكار ، لقد تتبعك المخبرون أكثر من مرة ، ورأوك تذهبين إلى داره ، وتخرجين منها . تتبعوك وأنت تتصلين بتجار المخـــدرات الموزعين ، ثم تتبعوك إلى هنا

— لكن هذا مستحيل وأنا .. أنا لا أعرف الرجل ، ولم أره أو أسمع عنه فى حياتى لا بد أن هناك خطأ

لم يكن الضابط ليؤخذ بهذه البراءة الظاهرة فكم لاقى من مجرمات عاتيات ، بل وقاتلات يتسمن ببراءة الوجه . قال بغلظة

— أقربها البارحة . لقد شاهدك المخبرون وأنت تخرجين من هنا مرتدية الفراء البنى وتضعين نقابا على وجهك . إتجهت من هنا إلى منزل المنـــاوى رأساً ويبدو أنك كنت متعجلة إذ عدت دون أن تقومى بجولتك المعتادة . أين المعطف ؟

كانت تسمع مذهولة تماماً . توقف عقلها عن العمل،وأبى أن يتابع الكلمات . هى .. توزع المخدرات ؟ كيف يمكن أن يتهموها ؟ .. إنتبهت على صوت الضابط يكرر

— أين المعطف الفراء ؟ إن معى إذن تفتيش ، ها هو .

قدم ورقة فى يده لم يعتن أحد بالنظر إليها . سارت يتقدمها ، زوجها ويتبعهما الضابط والجنديان . دخلت حجرة النوم ، واخرجت الفراء فتناوله الضابط . تحسست يداه المدربتان بسرعة البطانة ثم أدخل إحدى يديه بينها وبين الفراء ، وأخرج منها أشياء لم تعرف ما هى ، بعضها أخضر اللون ، وبعضها مسحوق أبيض ، موضوعة بعناية داخل أكياس صغيرة من النايلون . إستمرت يد الضابط تخرج الأكياس حتى أضحت كمية غير صغيرة . ثم التفت إليها وقال ..

— هل لازلت تصرين على أنك لا تعرفين شيئاً عن المخدرات أو المغاوى ؟

فيما يشبه الحلم رأت زوجها ينظر إليها غير مصدق. رأته ينقل النظر بينها وبين الضابط والأكياس الموضوعة على المنضدة . أخيراً تكلم بصوت متهدج .

— لماذا يا آمال ؟ لماذا ؟ أننى لم أمنع عنك مالا أو متاعا ! لماذا ؟

هنا وجدت صوتها وهتفت بجنون

— ليس أنا .. أنا لم أفعل شيئاً ولا أعرف من أين أتت هذه الأشياء .. إنى بريئة .. ألا تصدقنى .

لم يبد عليه أنه صدقها . إلتفت إلى الضابط عسى أن يجد عنده مخرجاً . وأراد الضابط أن يقطع اى شك باليقين فسأل .

— البارحة مساء .. هل خرجت ؟

لم تستطع الانكار

— أجل

— أين ذهبت ؟

توقفت عن الكلام . ماذا تقول ؟ هل تقول إنها كانت عند عشيقها ؟

— انا . . انا لا أذكر .

— هل رآك أحد وأنت فى الخارج ؟

— كلا . . لا أعتقد .

فجأة قبض زوجها على ذراعها يهزها بشدة .

— آمال . . قولى لهم اين كنت البارحة . . قولى إنك كنت عند الحائكة الجديدة . . ما اسم صاحبتك التى ذهبت معك . . إخبريهم ولا تقفى هكذا . .

إنفجرت باكية وهزت رأسها نفيا . كلا إنها لا تستطيع . لكن كيف حدث هذا ؟ كيف يمكن أن تصل هذه الأشياء إلى معطفها دون علمها ؟ سميرة ؟؟. إن الفتاة كانت تستعير ملابسها . إنها هى المجرمة . حاولت محاولة أخيرة . إبتهلت إلى الضابط .

— أرجوك واجهنى بالمناوى هذا ؟ سوف يقول إنى لا أعرفه . . إنها سميرة وليس أنا . . أرجوك .

رد عليها الضابط بهدوء .

— لن يجديك كل هذا . . إن المناوى قتل اليوم وهو يحاول الهرب . حتى لو كان حيا فمن البدهى أن ينكر معرفته بك ، ولن تؤخذ أقواله على محمل الجد . . أظن مع كل هذه الأدلة يستحسن أن تعترفى

جن جنونها . فجأة إندفعت من حجرة النوم وقبل أن يستطيع أحد أن يوقفها كانت قد دخلت حجرة الإستقبال ، وهجمت على الفتاة وقبضت على عنقها بيديها كلتيهما وهى تصيح

— إخبريهم انك انت التى كنت توزعين المخدرات . قولى لهم أنك أنت ، ولست انا التى كنت ترتدين الفراء . . تكلمى . . قولى إنى بريئة . . إعترفى وإلا قتلتك .

لحق بها الضابط والجنديان وحاولا إبعادها عن الفتاة ، برفق أولا ثم بالعنف حينما لم تذعن . كانت لاتزال تصرخ وتبكى .

— سميرة .. تكلمى .. أرجوك .. لا تهدمى حياتى

تمالكت الفتاة نفسها ، وإستعادت جأشها من أثر الصدمة التى لاقاتها أثر هجوم السيدة عليها وقالت ببرود .

— أنا ارتديت معطفك ؟؟ طبعا لا .. قد اكون لصة .. لكننى قطعا لا أتجر فى المخدرات .

***



العبقرى

ساعة أن ولد شهدوا له بالعبقرية . وإلا فإنى لطفل من عائلة نكرة فى إحدى قرى الأرياف هذا الشعر الأشقر الجميل . ولم يكن أبوه ، ولا كانت أمة كذلك . دار همس فى القرية عن شائعة تناولت أحد أجداده ، أو لعلها إحدى جداته ، وأحـــد جنود جلالة ملك الدولة المتحدة . ربما كان فى الشائعة بعض الصحة .. فإذا كانت ، فعبقريته إذاً من النوع الأنجلوسكسونى .. والعبقريات على أنواع .. أم هل هى على أجناس ؟ !

لست أظن أن هنا مجال سرد الشائعة ، لـكن حق أرضى فضول من له هذه الصفة المقيتة سأذكرها عبرا . أما أنت يامن خلوت من هذه الرذيلة فتستطيع أن لاتقرأ الفقرات التالية فليس لها أى أثر فيما أود أن أرويه .

كانت الحرب بين جيش عرابى، وجيش جلالة الملك دائرة على أشدها . والقرية

بعيدة عن ميدان القتال ، كان أول من رأى البريطانى أحد الخفراء . رآه مختبأ بين أعواد الأذرة . أراد كل منهما أن يفر من الآخر ، ثم جمعهما الخوف . قالوا فى البلدة هو جاسوس فاقتلوه . وقال رجل من القوم عليم ، بل هو هارب من جيش الأعداء فأسروه : رد خبيثهم أن شيخ الخفر إختطفه من ثكنات الأعداء ، وطنية منه واقتدرا ، وزعم فاكههم أن المسألة لاتعدو أن تكون شمس الصيف لم يتحملها الإنجليزى فساح فى الحقول لايعى مايفعل .

أيا كان الأمر فقد رأى شيخ الخفراء بعبقرية إقتصادية أن هذا الإنكليزى هبه هبطت عليه من السماء . إن انتصر عرابى وجيشه فسوف يقدمه لهم ، ولاشك أنهم سيغدقون عليه المناصب والنياشين . وإن كانت الأخرى فترى بكم سوف يسترد الإنكليز احد بنى جلدتهم ؟

حماه من عـــدوان أهل القرية وأواه . إستضافه فى حجرة منفردة فى داره وأكرم مثواه . قدم له من الغذاء مالم يكن يطعم أهـــل بيته حتى فى المواسم ، والأعياد . كان الإنكليزى يشرب اللبن ، والشاى صباحا ، ويأكل لاأقل من أربع بيضات . إستراح إلى دواجن الدار فأخذ يلتهم منها مالذ وطاب كل يوم واحدة ، حتى أتى على ما كان لدى اهل الدار . كان صبية الرجل وبناته ينظرون إلى ضيفهم الممقوت ، وهو يلتهم الطعام التهاما بحقد ، وحسد ، وغيره . اضحت الحرب محور تفكيرهم ، ومحط آمانيهم ان تنتهى وما كانوا قبلا يشعرون بها ، أو يفكرون فيها وهى منهم دانية . كل هذا والانكليزى ماض فى التهامه ينعم بالطعام ، والشمس ، والدفء ، لايرغب عن حياته تبديلا .

إنتهت الحرب ، ولكل شىء نهاية ، وتنهد الأولاد فرحا . لم يكونوا يأبهون إلا ان يتخلصوا من الضيف الثقيل . ارتدى شيخ الخفراء أحسن ملابسه وذهب مستبشرا إلى ثكنات الجنود . لقد آن له ان يحصل على ثمرة ما كابد الأسابيع الطوال . روى للمترجم روايته وكيف انه اكرم وفادة الجندى حينما علم انه احد جنود جلالة الملك ، وحماه من أهل البلدة ، وجبروتهم . رآه وهو يكلم احد الضباط ، ثم رأى الضابط يرجع إلى سجل ضخم لديه . سمعه يخاطب الترجمان

بلهجة قاسية لاتبشر بخير ، ويشير بيده نحوه ، والمجلد إشارات لم تكن تحتاج إلى كثير من الذكاء لتفهم معناها .

قال له الترجمان إن سجلات جلالة الملك تؤكد أن الجندى الذى ذكر إسمه مات بطلا فى ساحة القتال . أكثر من هذا ان السجلات قد أرسلت صورها إلى وزارة جلالته . والأدهى ان الوزارة طلبت ان يمنح إسم هذا البطل وساما رفيعا . افبعد كل هذا يريد فلاح الشرقية ان يكذب ماحدث ؛ ويدعى ان البطل عنده حى ؟ أيريد فلاح الشرقية ان يكذب سجلات الملك ، وجيش جلالة الملك ، ووزارة جلالة الملك ، وجلالة الملك نفسه ؟ ! إنه لاشك مجنون أو محتال .

قذفوا به خارج الشكنات ، ولم يستمعوا إلى احتجاجاته وإيمانه أن الجندى حى يلتهم طعامه ، وطعام عياله . وقف ينفض التراب . واحتار فيما يفعل . هداه تفكيره أن يذهب إلى مأمور قسم الشرطة فهو الذى يستطيع ان يأخذ له حقوقه من هذه الطغمة المفسدة فى الأرض . صعق إذ رأى أن مأمور القسم قد استبدلوه ، وحل مكانه واحد من هذه الطغمة المفسدة فى الأرض .

عاد إلى بلدته يجرجر أذيال الفشل . كان أول مافعله ان دخل داره وطرد ضيفه الثقيل . لكن أبى الضيف ان يخرج . لقد استمرأ العيش الناعم ، البيض ، واللبن ، والجبن ، والسمن ، والشمس الدافئة ، اين سيجد كل هذا ؟ . حاول شيخ الخفر أن يكون حازما ، إلا ان الانكليزى كان باردا فى دمائه ، أو دمثا فى برود . انتقل شيخ البلد من الحزم إلى التوصل ، الاسترحام . ولم ينفعه كليهما . استعدى عليه خفراءه ، وأهل بلدته . رفضوا ، وافهموه انهم لن تكون لهم يد فى إيذاء انكليزى والانكليز يحتلون البلاد . حتى إن كان هذا الانكليزى مات بطلا فى ساحة القتال طبقا لسجلات جلالة الملك .

قالوا إن شيخ البلد تخلص من الرجل بأن طلب منه الإسلام ويزوجه ابنته ، وقبل الانكليزى فلم يكن له دين على أى الأحوال . من نسله جاء بطل قصتنا ، هو نزعة عرق .

انت ترى أن الشائعة لاعلاقة لها بالقصة ، وسوف تتأكد من ذلك بعد حين .
عاملوا الطفل بما يناسب ماوهبه الله من عبقرية . لم يضعوا غطاء على رأسه ، فما كان لمثل هذا المنبر ان يستتر . لم يدعوه يعمل فى الحقول ، وأرسلوه إلى المدارس الاولية . لم يخيب لهم أملا . كلما مرت السنون تزايدت معها تجليات العبقرية ، حتى جاءهم النبأ بأنه قد تم تعيينه مدرسا فى احدى المدارس الاولية . ليس فى القرية ، وإنما فى المدينة .

إرتحل بين هتافات أهـــل القرية ودعائهم ، واستقر فى حياته الجديدة . لـكن ماكان لمثل هذه العبقرية ان تهنأ ، او تقنع بمجرد مركز مدرس فى المدارس الاولية . كان يجب أن تخلد . اتجه إلى الكيمياء يدرسها ويستوعب أحاجيها . قرأ عن ذلك الدواء السحرى الذى أعيى العلماء البحث عنه والذى يخفى الأشخاص عن الرؤية ، فركز اهتمامه عليه .

سنوات مرت استكمل فيهـــا مصله ، أو ظن أنه استكمله : أراد أن يجربه فى أحـــد الفئران ، وما أكثرها فى حجرته . صحيح انها فئران رمادية لاتشابه اخواتها البيضاء ، لـكن مافارق اللون على أى الأحوال . حاول ان يقتنص فأرا إلا أنها كانت من النوع المفلات . حتى الجبن الذى كان يضعه كانت تأكله دون أن توصد عليها المصيدة .

بعد ان أعيته الحيلة حزم رأيه أن يجرب المصل فى نفسه . ماضره لو جربه وهو واثق من نتيجة أبحاثه . فى لحظة شعور بالبطولة استدعى أحد أصحابه من الممرضين وحقنه فى الوريد موهما إياه أن المادة جديدة وردت من الخارج لعلاج مرض متأصل . إذا كان الممرض قد صدقه فإنه آثر ألا ينتظر نتيجة الحقنة ، وخرج متعجلا بعد أن تأكد من أن أحدا لم يره ، وبعد قبض دريهماته .

شعر العبقرى برعشة شديدة ، وتصبب جسده عرقا . ما أن حل المساء حتى كان مستلقيا على الفراش لايستطيـع النهوض . أمضى ساعات وهو يشعر بالآلام فى جميع عضلاته ، وقبل الفجر نام مرهقا . فى الصباح حينما استيقظ كان أول مافعله أن نظر إلى يديه . لم تختفيا وان لاحظ شيئا غريبا فيهما . لقد اختفى شعرهما .

هب من فراشه ، وجرى ينظر إلى وجهه فى المرآة . كان الوجه مازال موجودا

لكن شعر رأسه اختفى ، كذلك اختفى شاربه الأشقر الجميل الذى كان فخورا به ، وحاجباه ، بل ورموش عينيه . لم يبق له فى جسده شعرة واحدة . حانت منه لفتة إلى الفراش ورأى شعره عليه . إنتابه ذعر حقيقى وراح يتحسس جلده . أحس به أملسا كجلود الأطفال . لقد ذهبت كل علامات عبقريته .

رأوه يرتدى شالا يلف به رأسه ، وذقنه مدعيا إصابته بالبرد . أخفى عينيه ، وحاجبيـــه وراء منظار أسود كبير ملأ نصف وجهه ، فلم يكن يستطيع أن يواجه الضوء . مضت أيام ذهبت فيها إلى كل الأطباء فى المدينة . أخبروه أن بصيلات شعره جميعا قد ماتت ولا أمل له أن تعود . نصحوه أن يصنع أهدابا ورموشا صناعية ، تقيه الضوء ، والعرق .

قبل ذلك ، وأضاف إليها باروكة للرأس . اختارها جميعا سوداء اللون فلم يعد يثق فى الأصفر ، ولافى العبقرية الانجلوسكسونية . من يدرى ربما سوف يجرب حظه مع العبقرية السامية .

لعلك الآن تصدقنى حينما قلت لك إن كل ماورد عن الشائعة لاداعى لقراءته ، لكن .. هو الفضول .

* * *

إهداء

القصتان التاليتان ، درس فى التاريخ ،
ونبات المريخ ، مهداتان الى
الأخ الأستاذ نهاد شريف
رائد القصة العلمية فى مصر .



درس فى التاريخ

مقدمة

أيا بلغت اختراعات الإنسان وابتداعاته فهى بالضرورة لا ترقى إلى الكمال لأن الناقص لا يتولد منه الكامل . إذا فالعلم الوحيد الكامل هو علم الله سبحانه وتعالى .

من القرآن نقرأ « وعلم ربك آدم الأسماء كلها » العلم الكامل إذا لقنه الله لآدم أبى البشر . هل ضاع هذا العلم ، واندثر بخروج آدم من الجنة ؟ لسنا نحسب ذلك فلادليل تحت يدنا، فى حدودعلمى ،يشير إلى هذا ، بل إن العكس ربما كان هو الصحيح . خذ مثلا سفينة نوح عليه السلام التى أجمعت الأديان ، بل والأساطير على سابقة وجودها . أى علم احتاجه نوح عليه السلام ليبنى السفينة ؟ وأى علم كان لديه ليجمع فيها زوجا من كل المخلوقات ؟ اعنى كيف يجمع النمر ، والفهد ، والأسد،

والزراف ، والنعام ، والنزال ، والأوز ، والبط ؛ وغيرها فى حيز مهما بلغ من السعة فهو ضيق ؟ من أين كانت هذه المخلوقات جميعها تأكل ؟ عشرات من الأسئلة يمكن أن يضعها الإنسان دون تفسير ظاهر مقنع إلا أن يكون هنالك علم ، أو بقايا من علم الله الذى لقنه لآدم .

تصورى إذا فى هذه القصة هو أن عصر الآله الذى نعيش فيه ليس رقيا حضريا ، وإنما هو تدهور حضرى ، هو قشور علم ، وأن عصر العلم الحقيقى ، سوف يبدأ حينما يبدأ الإنسان فى الاستغناء عن الآلة ، ويعود إلى ما كان عليه يوم بزغت الشمس على أول يوم لآدم على الأرض .

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها » ..

هى دورة الحياة تنتهى من حيث بدأت ، ثم تبدأ من حيث تنتهى .

لو رأيتهم لحسبتهم نياما، وما هم بنيام. استلقوا مسترخين، كل كيفما اشتهى. على مدى النظر امتدت حولهم مروج خضراء، وأزهار متباينة الألوان يملأ عبيرها الجو. سطعت الشمس حانية عليهم، تمنح الدفء دون حرارة، وانسابت نسمات خفيفة، تنعش دون برودة.

إذا أمعنت النظر لظننتهم إخوة توائم، لا يكاد فارق أن يبين بين أحدهم والآخر. عشرون شخصا يزيدون واحدا. لهم الرؤوس الضخمة نفسها، خلت من الشعر أو آثاره، ملساء ناعمة تلتمع تحت أشعة الشمس. أجسامهم نحيلة هزيلة لا تناسب بينها وبين الرأس حتى لتخشى أن تسقط لولا أن رقابهم لا أثر لها، أو تكاد. إذا قدر لك أن ترى أفواههم لهالك أن لا أثر للأسنان فيها. أما آذانهم فقد قل حجمها، والتصقت بالجمجمة حتى لا تكاد أن تبين.

إن أردت أن تقدر لهم أعمارا فلن تستطيع. ربما كانوا أطفالا إذ لا أثر لأية تجاعيد على وجوههم، ولا نبت لشعر لحية. وجوه ملساء ناعمة لم تترك السنون عليها خطوطا. تسترجع الرأى إنهم يعطونك احساسا بعمر سرمدى أو يكاد. لو سئلت لما استطعت أن تجيب.

كانوا يتكلمون، أو على الأقل كان أحدهم يتكلم، والباقون يستمعون. لكنك لن تسمع ما يقول ولو وضعت أذنك على فم المتكلم. استعملوا التخاطر إذ وصلوا به إلى درجة رفيعة من التقدم. أكثر من هذا، لو أنك غرزت دبوسا فى جسد أحدهم ما تحرك، ولا شعر. لقد تعلموا كيف يستعملون السكا، أو القرين.

الواقع أنهم لم يكونوا موجودين حيث تراهم. أو على الأصح، إنك لا ترى سوى أجسامهم، أما هم فكانوا فى رحلة بعيدة، رحلة فى الزمن يتلقون درسا فى التاريخ. عفوا، لعلى أسأت التعبير. لم يكونوا فى رحلة فى الزمن، بمعنى أنهم لم يسافروا عبر القرون، وإنما استحضروا الزمن الذى يرغبونه. تماما مثل آلات التصوير إن استطاعت أن تلتقط صور الماضى وتجسدها. المادة لا تفنى، وكل جسم يترك وراءه نوعا من الاشعاعات خاصا به، فإن استطاعت آلة تجميعها لأمكنها أن

تصور الحوادث الماضية كأنها حاضرة تتمثل . والسكا تستطيع ذلك ، دون آلات . ومع هذا فهنالك فارق بين الآلة والسكا . أن الأحداث فى الآلة تعرض أمامك وتمر عبرا ، أما السكا لتستطيع أن تستحضر صور الأحداث ، أعنى أنها تتجسد كاملة أمامك ، كأنها تحدث ، وتستطيع السكا بالتالى أن تعيش فيها . أحداث تمر بأبعادها الأربعة الكاملة لتخلق عالما حقيقيا ، أو يكاد .

قال المتكلم :

ــ عليكم الآن أن تلتفوا حولى ، ولاتتحركوا إلا جماعة واحدة وإلا لو انفصل أحدكم وضل طريقه ، ضاعت إلسكا مع الزمن وعسر استرجاعها . أنتم الآن فى مدينة كان اسمها القاهرة وأما السنة فهى ١٩٨٠ أى منذ أكثر من عشرة آلاف سنة خلت . أن هذه أول رحلة لكم . لكن لاتخشوا شيئا لأن تلك الوحوش التى ترونها تسير فى الطرقات لن تراكم ، ولن تسمع إلا فى حدود ذبذبات صوتيه معينة بين ٢٠ ، ١٥٠٠٠ فى الثانية وهم لايكادون يعرفون شيئا عن التخاطر . إذا تصادف أن اصطدم أحدهم بكم فلن يشعر ، سوف يمر خلالكم .

هذه الوحوش هى أسلافكم الإنسان . لقد درستموهم تشريحيا ، والآن عليكم أن تروهم بأنفسهم وتدرسون كيف كانوا يتصرفون . لاحظوا القامة الفارهة التى تزيد على ضعف قامة أحدنا ، والجسم الضخم الذى لافائدة منه سوى استهلاك كمية لاداعى لها من المساحة ، والأكسجين ، ومن الطعام ، والماء . لاحظوا الرأس الصغير المركب على هذا الجزء الرفيع المتصل بالكتفين الهائلين . هذا الجزء هو مايسمى بالرقبة . هل لاحظتم نسبة الرأس الصغير إلى الجسد . إن السبب فى هذا هو أن أجدادكم لم يكونوا يستعملون من عقلهم أكثر من عشر قواه الطبيعية ، وبالتالى فإن خلايا التسعة أعشار الباقية ضمرت ، وقل معها التجويف الذى يحتوى على المخ ، حتى أن متوسطه لم يكن يزيد على ١٤٠٠ سم^3 .

لعلكم لم يفتكم أيضا طول الذراعين ، هذا أثر من الماضى حينما كان الإنسان القرد يستعمل الذراعين فى المساعدة على العدو ، تماما كما تفعل أنواع القردة .

لقد درستم أنه مازالت بهم آثار أسلافهم القردة . ذلك الشعر على الرأس مثلا ، بل وفى بعضهم يغطى الشعر جزءاً كبيراً من الوجه والجسد ، هو من بقايا القردة . الأسنان والأنياب هى أيضا من بقايا الحيوانات ، كذلك الأظافر فى اليدين والقدمين ، وهنالك آثار حيوانية أخرى كثيرة داخل الجسم درستموها تشريحيا ولاداعى لإعادتها .

لاحظوا التباين الهائل بين هؤلاء الوحوش سواء فى لون الجلد ، أو الشعر ، أو العينين ، أو قسمات الوجه ، أو التركيب الجسمانى . لن تجدوا ، إلا فيما ندر ، شخصين يتفقان مع بعضيهما تماما يرجع هذا إلى انهم كانوا يتزاجون مثل سائر الحيوانات ، وبالتالى كان ينطبق عليهم قانون الوراثة ، يرثون جزءا من سماتهم من ناحية الأم وجزءا من ناحية الوالد ، ويمكنكم أن تتصوروا بلايين الانقسامات التى يمكن أن تنتج من هذا ، كما يمكنكم أن تتصوروا مدى ما كانت تتحمله النساء من آلام الحمل والولادة ، لقد اختفى كل هذا عندنا من قرون عديدة ، وأضحت عملية التكاثر تتم فى حضانات وبذلك سهل علينا تحديد النسل تماما ، بل والجنس أيضا .

أوجه نظركم إلى تلك المواد التى يضعونها على أجسامهم . هذه ليست من جلودهم ولم تثبت عليهم إنما هى ما كانوا يطلقون عليه ملابس . كانوا يصنعونها من مواد مختلفة ، نباتية ، وحيوانية ، وكيماوية ليتقوا بها الحر والبرد . لم يعرفوا كيف يتحكمون فى اشعة الشمس ، ومسار الرياح ، وبالتالى كانوا عرضة للبرد ، والحر ، والأمطار ، وغيرها من عوامل الطبيعية التى سبق أن درستموها والتى سوف تشاهدون بعضها الآن وفى دروس لاحقة . لاتغبنوهم حقهم ، لقد عرفوا كيف يتحكمون فى الجو ، لكن فى حيز ضيق مغلق كما سترون .

هذه الحجارة التى تحيط بكم من كل جانب هى المنازل والعمارات . هى فى الواقع أثر أيضا من آثار الحيوان ، والإنسان الأول ، حينما كانوا يعيشون فى كهوف الجبال . أثر مهذب قليلا يحتوى على بعض وسائل الراحة ، كما كانوا يتصورونها فى تلك الأزمان الغابرة .

لعلكم وأنتم وقوف تدهشون إذ ترون أن الطرقات ثابتة لاتتحرك وأن الذى يتحرك هو تلك المركبات المرعبة التى تتزاحم وراء بعضها ، وذلك على عكس أبسط الابتداعات التى اكتشفها أجدادنا منذ أكثر من ثمانية آلاف سنة ، لكن تذكروا دائما أن الإنسان كان مازال فى عهد طفولة عقلية ، وكانت حضارته ، وأنا أطلق لفظ حضارة تجاوزا ، تقوم جميعها على العجلة ، فمنذ أن اكتشفها أحدهم ، ربما منذ عشرين ألف سنة ، دارت كل الاختراعات تقريبا حولها وكان لها من الآثار مثل ما لاكتشاف النار أو يكاد .

صحيح أنهم كانوا قد بدأوا يستعملون الدرجات المتحركة ، لكن هذه كانت تحركها الكهرباء ونحن نعلم أن قوة الكهرباء محدودة لاتستطيع أن تحرك طرقات تغطى سطح الأرض مثلا . لهذا استعمل أسلافنا قوة جاذبية الارض وهذه بدورها دخلت مرحلة النسيان . أقول هذه المركبات التى ترونها ليست بشعة الشكل ، بطيئة الحركه ، فحسب ، بل إنها أيضا تسير بمايسمى البنزين ، وهو أحد مشتقات البترول ، فتلوث الهواء الذى يستنشقونه ، كأنما لم يكفهم ما كان يحمله من ميكروبات .

بمناسبة الميكروبات لعلكم تعلمون أن الجو حولكم مملوء بآلاف البلايين منها ، وانكم لوكنتم تتنفسون الآن منه لما أمكنكم الحياة لأكثر من ساعات قلائل . أما سر تمكن أسلافنا من البقاء فيه فلايزيد عن مجرد تأقلم عليه ، واعتياد الجسم على المقاومة لأجيال ، وقرون متعاقبة .

نعود إلى تلك الآلات المتحركة التى كانوا يطلقون عليها سيارات . ترون أنها من كل شكل ، وكل حجم . استعملوها فى الانتقال ، وفى نقل البضائع ، والخضروات ، واللحوم . أجل كانوا يأكلون الخضروات وكثيرا من النباتات نيئة ، ومطبوخة ، وكذلك اللحوم ، بل أنهم تعدوا إلى المعادن فتغذوا على بعضها . سوف أدخل بكم أحد هذه الاماكن التى يسمونها مطاعم ، وسترونهم يأكلون على الطبيعة ، ولن تستطيعوا التفرقة بينهم ، وبين الحيوانات .

لكن دعونا نكمل حديثنا عن السيارات ، إن الإنسان البدائى سنة ١٩٨٠ كما ترون كان من الجهل والضعف بحيث احتاج فى كل عمل يأتيه إلى الآله ،

كما ارتكز تماماً فى معيشته على النبات والحيوان . احتاج إلى الآله للنقل برا ، وبحرا ، وجواً . آلات مثل هذه ترون نماذج منها مازالت محفوظة فى المتاحف ، وترونها الآن على الطبيعة . وقد تدهشون حينما تعلمون أنهم حتى فى حساباتهم كانوا يستعملون آلة اسموها الكمبيوتر ؟ منتهى آمالهم أن تكون كل حياتهم آلات .

قارنوا بين حياتكم وحياتهم . لنأخذ المواصلات مثلا . إنكم تستطيعون الآن الانتقال بكافة الأنواع ، والأشكال . تستطيعون أن تنتقلوا بالكا بسرعة أكثر من الضوء آلاف المرات ، إذا أردتم الارتحال بين المجرات . إذا أردتم الانتقال بالجسد فما عليكم إلا أخطار المجرة التى تريدون الارتحال إليها ليكون فى انتظاركم جسد تستعمله الكا طوال المدة التى تريدونها . تماما كما كان أسلافكم يفعلون فى حجز أماكن للمبيت فى الفنادق .

إذا كانت المسافات قصيرة فتستطيعون دخول حجرة الأشعة لتتحللوا إلى ذرات يعاد تكوينها بسرعة الضوء في المكان الذى تريدون الارتحال إليه . إن شئتم مجرد النزهة فأمامكم طرق أسلافكم المتحركة تسير بسرعة لا تزيد كثيراً على سرعة الصوت . كل هذا يتم بلا جلبة ، ولاضوضاء ، ولاآلات . هو مجرد استغلال للقوى الطبيعية الأصلية ، أعنى الأشعة الكونية ، وأشعة الشمس ، والمغناطيسية ، والجاذبيـــة .

سوف أعطيكم أمثلة على التناقض الغريب فى تفكير الانسان فى تلك العصور . كانوا مثلا يخترعون مركبات فضائية لأول ارتياد للفضاء . تلك المركبات كانت تحتاج إلى كميات هائلة من الوقود حتى تستطيع التخلص من جاذبية الأرض ، ثم تنطلق بعد فى الفضاء الكونى بقوة الاندفاع . فى الوقت نفسه كانوا يدربون رواد الفضاء فى حجرات عزلوا عنها الجاذبية . إذا فقد كانوا يعرفون أنهم يستطيعون عزل الجاذبية مع هذا فانهم لم يفكروا فى استعمال عازل الجاذبية بالنسبة لمركبات الفضاء إلا بعد ذلك بقرون . استطاعوا فى مبدأ الأمر أن يعزلوها فى بقعة معينة تبدأ منها المركبة فى الحركة ، ثم عرفوا أن فى الطبيعة مواداً طاردة للجاذبية لا تؤثر فيها .

مثل آخر . كان لديهم جهاز أطلقوا عليه التلفاز ، ينقل الصور والأصوات . إذا في الطبيعة توجد الصور والأصوات وإلا لما أمكن نقلها أصلا ، ومـــع هذا فلم يفكروا فى استحضار صور الماضى كما نفعل نحن ، وإن كنا قد استغنينا عن الآلة . مثل ثالث . كانوا قد استطاعوا تخزين أشعة الشمس فى بطاريات استعملوها فى تسيير سيارات ، ولم يتمكنوا من انتاج الكهرباء منها لإنارة مدينة أو قرية لم يفكروا فى استعمال هذه الطاقة الشمسية الهائلة فى خلق منطقة تخلخل هوائية ليسيطروا بها على مسار الرياح . حينما استطاعوا ذلك بعد قرون تمكنوا من استصلاح كل المساحات الشاسعة التى كانت مجرد أراض صحراوية . لو انتقلت بكم الآن إلى الصحراء لرأيتم المحاولات اليائسة التى يقوم بها الانسان لاستصلاح بضعة آلاف من الأفدنة مستعملا فى ذلك الآلات ! آلات لتسوية الأرض ، وآلات لضخ الميـاه ، وآلات للحرث وآلات لنقل الأتربة . عشرات الأنواع من الآلات ، وعشرات السنين من المجهودات الضائعة ثم تأتى الرياح لتنقل مئات آلاف الأطنان من الرمال فى ساعات قلائل لتهدم كل ما فعلوه . بعد قرون كما قلت استطاع الانسان التحكم فى مسار الرياح وقوتها . فسخرها فى نقل الرمال ، وتسوية الأرض ، ثم سخرها فى جلب الأمطار ، واستصلح كل الصحارى فى أقل من نصف قرن .

غير ذلك ، كانوا يعرفون أن الشمس هى المصدر الأصلى لكل الحيوية المخزونة فى الغذاء والفحم ، وأضرابه ومع هذا لم يحاولوا الاستفادة منها فى مدهم بالحيوية رأسا وبذلك يستغنون عن الغذاء الوسيط ، والملابس . عرفوا أيضا أن كل شئ مكون من ذرات وأن الفارق بين أية مادة ، وأخرى انما هو فى تكوين الذرة . لم يحاولوا الاستفادة من هذه المعلومات إلا فى محاولاتهم تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب لماذا ؟ لأنهم كانوا يسعون إلى الثراء ، لماذا ؟ لأنه كان لديهم نظام مالى يقتضى تقويم الأشياء بالنقود ، وهى عملات تصدرها الدول المختلفة مقابل غطاء ذهبى . فالذهب بالنسبة لهم كان أساس التعامل . لماذا أيضاً ؟ لأن العالم كان مقسماً إلى

دول .. ما هى الدول ؟ لا .. لا هذا مجاله درس آخر . الآن ندرس فقط التطور التاريخى للحضارات البشرية عبر العصور ولا شأن لنا بالتطور الاجتماعى أو السياسى . نحن ندرس الانسان فى مراحل حضارته المتباينة ولا ندرس الحضارات ذاتها .

الآن هل ترون ذلك الرجل الذى تختلف بزته عن الآخرين ؟ أنه من رجال الشرطة . كانت لهم أهمية كبرى فى ذلك العصر فأسلافنا كما قررت أكثر من مرة كانوا أقرب إلى الوحشية لهذا كثرت جرائمهم، وعدم حفاظهم على النظام فكان لابد من قوة تحمى المجتمع، وتكون أداة لتنفيذ العقوبات على المجرم . نحن لا نحتاج إليهم الآن لأن مجتمعنا كما تعلمون خلو تماما من كل جريمة . أن آخر جريمة وقعت منذ أكثر من ألف عام على ما أظن .

هنالك أسباب لوجود الجريمة أو انعدامها ، أهمها البواعث فالمال أو الغيرة أو الدوافع السياسة ، أو الدينية أو غيرها ، وليس فى مجتمعنا أى نوع من هذا . فالمال لا قيمة له . ليس لدينا نقود أو شئ يشترى أو حق حوانيت للبيع . من أراد شيئاً فما عليه إلا أن يأخذ كفايته منه إن شاء أكثر من الكفاية فلن يمنعه أحد . لا يوجد أى تناحر على الغذاء ، فالكل يأخذه من مصدره الأصلى ، الشمس ، ولا يستطيع أحد أن يمنع أحدا . قيسوا على هذا كل الدوافع .

ليس هذا فحسب . أن المجرم عادة يقترف جرمه ولديه أمل فى أن يفلت من العقاب . وهنالك استحالة الآن حتى لمجرد التصور . يكفى أن يتذكر المجرم أننا نستطيع أن نستعيد الأحداث كما وقعت صورة وصوتا ، بل وحتى « بصمات » الأشعة ليقتنع باستحالة إفلاته من العقوبة .

وفى حين أنه ليست لدينا صناعات أو أعمال بالمعنى المفهوم لدى أسلافنا ، فكل امرئ يفعل ما يريد تماما ، نراهم يرتزقون من أعمالهم . أنتم تعرفون أن العمل الوحيد لدينا هو العلم الكونى ، فيما عدا هذا فلا يوجد عمل . خذوا مثلا الأشياء

للشابهة لهم ، للوسيقى . ان منا من يؤلف القطع الموسيقية ويعزفها ، لـكنه لا يفعل ذلك بأجر إنما يفعله لأنها هوايته ، بينما كان أجدادنا يرتزقون منها . عالم النبات يهجن الزهور ، مثلا ليعطى نوعا أجمل شكلا ، أو أكبر حجما أو أذكى رائحة . هو يفعل ذلك لأنه يريد أن يفعله ، ولا يرتزق منه .

أوقات الفراغ ، إن صح التعبير بالنسبة لنا ، يمكننا ،إن شئنا أن نستمتع بالموسيقى التى يؤلفها معاصرونا ، والتى يرسلونها فى موجات محددة ، تصل إلى الأذن مباشرة وما على المرء إلا أن يركز تفكيره على الموجات الموسيقية . يمكنك أن تستعيد موسيقى أى قرون ، فى أى بلد ، أو أى عالم ، بينما لم يكن يستطيع جدك الأكبر إلا أن يدير بعض آلاته ليلتقط عدداً محدداً من موسيقى معاصريه .

كذلك ما كانوا يطلقون عليه السينما أو التمثيل المسرحى . بينما يشمل أفقك دائما العالم أجمع فى أى مكان ، أو زمان سابق كان على أسلافنا أن يذهبوا إلى الديار المخصصة للخيالة ، أو المسرح أو أن يديروا آلاتهم فى أكواخهم .

حياتهم مختلفة تماما من كل الوجوه عن حياتنا ولا يستطيع المرء أن يستوعبها على حقيقتها إلا إن عاش فيها كما نفعل الآن . كانت حضاراتهم تقاس بالآلات التى يخترعونها ، وأنواع الأكواخ المتعددة التى يشيدونها ،فإذا نقلت أحدهم إلى عالمنا لاعتبرنا أقواما متوحشين ، إذ لن يرى أكواخا أو مدنا ، سيرى فقط مساحات شاسعة من الزهور ، ونباتات الزينة والجداول . لن يتصور كيف نعيش وأين ننام وماذا نفعل إذا أراد أحـدنا الاختلاء بنفسه . لن يتصور أن أيامنا إن شاء الاختلاء بنفسه فما عليه إلا ان يقيم حوله ، للمساحة التى يرغبها ، حاجزاً من الأشعة غير المرئية ، وسيحترم الجميع هذا ولن يتخطاه أحد .

لن يتصور أجدادنا كيف يمكن أن يوجد عالم بلا جيوش . ولا حكام ، ولا مدن ، ولا مبان ، ولا قوات أمن ، أو أطباء ، أو أية مهنة أخرى محددة ، عالم

بلغت فيه الفردية ذروتها ، ومع ذلك فهو عالم إجتماعى تعاونى إلى أقصى الحدود . لن يستطيعوا فهم مثل هــذا العـالم لأن عقولهم كما قررت مازالت فى مرحلة بدائية .

ومع هذا فلعله من الطريف أن أذكر لكم أن هذا المخلوق نصف المتوحش الذى ترونه يهرول إلى غير هدف ، يشترك معنا فى شىء واحد . هذا الانسان الذى لم يكن يعرف كيف يعيش أو يتحرك إلا بالآلة البدائية الغريبة، كان أيضا يبحث عن سر الحياة .. تماما كما نفعل نحن الآن ؟ ! .

* * *

إهداء

القصتان ، درس في التاريخ ،

ونبوءات للمدنية ، مهداتان الى

الأخ الأستاذ نهاد شريف

رائد القصة العلمية في مصر .



نبات للزينة

هو ، عالم نبات . تخصصه نباتات الزينة ، هوايته تهجين النباتات . عائلته ، زوجه وفيه صبور ، وابن لايتعدى الثالثة من عمره ، وكاب أهدى لنجله فى عيد ميلاده السابق ، منذ أشهر معدودات . سكنه ، شقة بالدور الأرضى مكونة من ردهة ، وأربع حجرات تطل جميعها على شرفة واسعة تهبط منها ثلاث درجات إلى مساحة محدودة من الأرض استعملها صاحب الدار لإشباع هوايته . ترك جزءا من الشرفة مكشوفا ، وملأه بالنباتات المختلفة ، والزهور ، وأغلق جزءا بالزجاج ، وجعل منه شبه معمل لتجاربه وأبحاثه .

لو قدر لك أن ترى الشرفة ، أو الحديقة ، وما فيهما لانتابك التعجب . نباتات زينة متعددة تكون مجموعة فريدة فلم تكن فيها زهرة مألوفة ، أو نبات دارج . حديقة جمعت غرائب الأزهار ، والنباتات . لعل من أعجب ما ترى العين نبات ،

مجموعة منه مكان إنفرد به . أوراقه عريضة ذات خضرة باهتة ، تجلت لها عروق ه خضرتها فاتحة حتى لتكاد أن تكون بيضاء .

من هـــذه العروق بزغت أشواك يتعـدى طول كل منها ثلاثة سنتمترات ، إن مسست إحداها لهالتك صلابتها ، ومدى حدة نصلها . لم يكن هذا كل ماهو غريب في النبات . كان مزهرا ، ولن تمالك إلا أن تنبهر من شكل الزهرة . لست تحتاج إلى أى عناء لتقارن بينها وبين رأس البقرة . هنالك الفكان الضخمان ، والفم المستدق يعلوه الأنف ، والقرنان الصغيران ،والعينان الواسعتان . أما اللون فكان أصفرا ، ويحدد الأنف والعينين ، اللون الأسود . قارن ماشئت ، وستقف مذهولا من المضارعة .

على هذا النبات كانت تدور تجارب رب الدار فى السنوات السبع الماضية . وعن تجاربه وأبحاثه كان يناقش زميله فى التخصص ، ويشرح له وجهة نظره . كان الجو حارا وكانا جالسين فى حجرة الإستقبال ، والنوافذ مفتوحة . قال :

— إنى لا أجرى أبحاثا عن التهجين طبقا لقوانين مندل للوراثة ، فهذه لها حساباتها وقواعدها ، لكن أبحاثى إتخذت مسرى آخرا . إن ما أريد أن أثبته أن النبات يستطيع أن يؤقلم نفسه طبقا للبيئة الموجود بها . ليس هذا فحسب بل إنه يتعلم بالتجربة . لقد أثبتوا أن للنباتات أحاسيس معينـــة : يفرح ، ويحزن ، بل ويخاف ، فلابد أن يكون له قدر معين على الأقل من العقل يزن به الأمور التى تثير أحاسيسه، ومشاعره .

خذ مثلا النباتات المتسلقه . لوأنك وضعت عصا طويلة على بعد منها فإن النبات يتجه إليها . لو غيرت مكان العصا فإن النبات يغير اتجاهه إليها ، لو غيرته مرة ثانية لغير النبات اتجاهه . انك تضطر أن تستبعد المصادفة . كيف إذا استشعر النبات مكان العصا ؟

بالمثل النباتات آكلة اللحوم . منها النباتات المثانية التى نعرف أحد أنواعها باسم صائد الذباب ، ومثله البلاد وورث . هذا النبات له مثانات مجهزة بقداح آلى

تقذفه على الحيوانات الصغيرة ، ويرقات الناموس ، فيصيدها ثم يبتلعها . كيف يمكنه أن يحدد مكانها ويصيدها بهذه الدقة ؟ عن طريق ذبذبات معينة مثل الرادار ؟ ربما لكن يجب أن تكون فائقة الدقة والسرعة .

دعنى أشرح نظريتى : أننا نعرف من قوانين مندل أن النبات يكتسب صفات نبات آخر عن طريق التهجين ، وبهذا تمكننا من تحسين السلالات . لكن هل يستطيع النبات أن يكتسب صفات أخرى من تلقاء نفسه عن غير طريق التهجين ؟ هل يستطيع النبات بمجرد تغير البيئة أن يغير من صفاته ، وطريقة حياته ليتواءم مع البيئة الجديدة ؟

لقد بدأت بالنباتات ذات أكثر الصفات مفارقة . إن النبات العادى يمتص غذاءه من التربة عن طريق الدورة النتروجينية التى تلعب فيها البكتريا الدور الأكبر . ثم هناك بعض أنواع النباتات تأكل اللحوم ، وهذه كما نعلم لها وسائلها فى صيد فرائسها ، وإبتلاعها عن طريق أوراقها اللزجة ، أو الشوكية المفصلية ، أو الأوراق القاذفة الإبريقية ،أى النباتات المثانية . هذه ثلاث طرق لصيد الفرائس تستعملها النباتات . ويثور السؤال هل يستطيع النبات العادى أن يتحول إلى آكل لحوم ؟ وإذا كان ذلك فى إستطاعته فهل سوف يتمكن من إبتداع طريقه لصيد فرائسه ؟ أنا أقول إبتداع لأننى هنا أستبعدت تماما أية صفة وراثية ، فعلى النبات الجديد أن يطور لنفسة طريقة ليصيد الفريسة لا تمت بصلة إلى خصائص عائلته الأصلية أو فصيلته .

إننا نعلم أيضاً أن النباتات آكلة اللحوم تنمو فى المناطق السبخية ، أو المستنقعات ، أو فى التربة الضعيفة عموما حيث يكون النتروجين ناقصا ، وهو المادة التى تستخلصها النباتات من فرائسها ، فالنتروجين هو العنصر الرئيسى فى جميع البروتينات . لنفرض أننى حرمت نباتا عاديا من النتروجين فهل يتحول النبات إلى آكل لحوم ؟ وهل يطور لنفسه وسيلة صيد فرائسه ؟

على هدى ما تقدم بدأت تجاربي . إتخذت هذا النبات أساسا لأن لديه بعض الإمكانيات الطبيعيه ، فأوراقه مفصلية شوكية . بدأت بالتجارب على النبات البالغ ، وضعته في تربة خاصة ليس فيها الكمية الكافية من النتروجين ، وسرعان ما إصفرت أوراق الشجيرة ثم بدأت، تذبل وتموت . أجريت التجربة على بذور النبات ، لكنها لم تنبت . أخيرا أمكنني أن أعرف أدنى كمية من النتروجين يمكن أن تنبت فيها البذرة ، دون أن تتأثر كثيراً .

تلت ذلك خطوات أخرى أن أحرم النبات من إمتصاص النتروجين من التربة تماما، وأن أكمل النقص عن طريق وضع قطع صغيرة من اللحم على الأوراق . ذبلت بعض الشجيرات وماتت ، لكن البعض الآخر إستعاد قوته ، ونموه ، ولم يتوقف، بل أستطيع أن أقول إن الشجيرات نمت أسرع ، وأقوى من سائر عائلتها العادية التي نمت في تربة طبيعية تمتص غذاءها منها .

على أن هذا لم يكن كافيا إذ بقيت نقطة أخيرة . صحيح أن النبات أضحى يستخلص إحتياجاته من النتروجين من اللحم رأسا ، وهو بهذا صار من آكلي اللحوم ، لكن لا بد أن يوضع له اللحم ، فهو عاجز تماما عن تغذية نفسه ، وإصطياد فرائسه . لقد إستطاع النبات أن يطور وسائل هضمه لكنه عجز عن تطوير سبيل عيشه ، وإستخلاصه لنفسه ، أو صيد فرائسه ، مع وجود الإمكانيات الطبيعية لديه .

إتخذت في تجاربي سبيلا آخرا . توقفت عن وضع اللحم على الأوراق ، والأشواك ووضعتها قريبا منه بحيث يتمكن إذا ما تحركت الأوراق قليلا أن ينالها . وفعلا تحركت الأوراق لتلتقط اللحم . جاءت تجربتي التالية أصعب من الأولى . أنت ترى أن الأشواك متجهة إلى أعلى بينما باطن الأوراق خال منها . وضعت اللحم تحت الأوراق ووجدت أن الورق إنكفأ لتنغرز الأشواك في اللحم .

إنتقلت بتجاربى إلى مرحلة ثالثة . لم أضع لحما جامد الحركة لكننى أغلقت حيزا محدودا أطلقت فيه فراشات . إن كل مرحلة من هذه المراحل إستغرقت أسابيع ، وأحيانا شهورا ، وقد دونت التواريخ والتطورات بدقة ، وإنما أروى لك الآن مجرد مختصر لما فعلت . بعد فترة لم أجد الفراشات . هنا نقطة غامضة نسبيا فلم أكن أدرى فى مبدأ الأمر هل إستقرت الفراشات من نفسها على الأوراق فإلتهمها النبات ، أم أنه صادها وهى محلقة فى الجو ؟ !

أعدت التجربة مرارا ، وكانت النتيجة واحدة . كانت الفراشات تختفى دائما . أخيرا أطلقت النبات ، أعنى أننى إنتزعت الحواجز من حوله ، ولم أساعده فى غذائه بالنتروجين اللازم . كان عليه أن يعتمد على نفسه ليعيش . ذات يوم منذ ثلاثة أسابيع رأيت عجبا . رأيت فأرا صغيرا يحاول التخلص ، وقد أطبقت عليه أوراق النبات ، وإنغرزت الأشواك فى جسده ، والدماء تقطر منه . لم يكن النبات يستعمل ورقة واحدة ، ولا اثنتين ، إنما شاهدت الفروع نفسها تتحرك ، والأوراق تنصفق على كل جزء من جسد الفأر حتى إختفى تماما بينها .

وقفت مذهولا . لكن هذا لم يكن كل شيء . أننى أقسم أنى رأيت ، أو لعلى وهمت ، أن عينا الزهرة البقرة ، تنظران إلى كأنما ترقبانى . لم تكونا مجرد رسم لعينى بقرة ، وإنما كانتا عينين حقيقتين فيهما ترقب ، وفيها خبث . أقول لك الحق لقد إرتعبت من المنظر حتى انى تسمرت فى مكانى ، ولم أنتبه إلا بعد فترة فهرعت إلى حجرتى ، واحضرت منها مذكراتى ، ثم عدت أدون ماشاهـــدت واراقب التطورات . وعادت العينان ترقبانى . إن النبات لم يطور نفسه لصيد فرائسه بالطرق المعروفة فى النباتات آكلة اللحوم فحسب ، وإنما ابتكر طريقة جديدة تماما خاصة به . إنه يمد فروعه ، شأن النباتات المتسلقة ، وإن يكن اسرع منها فى النمو ، ولا تلتصق ورقة واحدة على الفريسة ، وإنما تنهال الأوراق الشوكية لتنغرز كل الأشواك فى جسد الضحية . اى حيوان صغير ذلك الذى يستطيع ان ينتزع نفسه من كل هذه الأشواك ؟

هذه الأشواك، والأوراق ؟ مامدى القوة اللازمة لمقاومة مثل هذا النبات؟هل يتمكن من إفتراس حيوان أكبر، وأقوى من الفأر ؟ كلب مثلا ؟ ! ماذا تعنى تلك النظرة التى رأيتها فى عينى البقرة ؟ هل وراؤها عقـــل بشـكل ما ؟ أم كان هـــذا مجرد وهم .

إن الشجيرة العادية من فصيلة هذه الزهرة لايزيد إرتفاعها عند أقصى نموها عن متر،أو متر وربع ، ولاتتجاوز حجم أوراقها كف يد الرجل ، أما هذه الشجيرة فقد أضحى ارتفاعها أكثر من مترين ، وبلغ حجم أوراقها مرة ونصف حجم الأوراق العادية،وزادطول أشواكها وسمـكها،وهى تستطيع أن تمدفروعها،ثم تعيدها سيرتها الأولى لتبدو للرائى نباتا عاديا للزينة . والشجيرة العادية تسقط أوراقها حينما تزهر أما هذه فلاتسقط . أما الزهرة نفسها ، فقد تضاعف حجمها .

كان على أن أجرى فحوصاتى على إجابة أسئلة كثيرة . ماهى وسيلة الهضم عند النبات ؟ كيف يختفى حيوان كامل لايبقى منه إلا العظام ؟ مامدى نهم النبات إلى النتروجين ؟ هل يقتصر نهمه على النتروجين فقط أم أنه تطور أيضا ، واتسع نطاق نهمه ليشمل البروتينات نفسها بجميع عناصرها ، بل والدماء أيضا ؟ أمسكت بالمدية الحادة التى أقلم بها النبات واقتربت . كنت أريد أن أقطع أحد الفروع ، لـكن قبل أن أفعل إمتد فرع ، وشعرت بالأشواك وكأنها أنصال خناجر حادة تنغرس فى ذراعى ، وتتالت الفروع تريد جميعها أن تنهال على . لن تصدق مدى القوة التى كانت الأوراق والفروع تجـــذبنى بها . إحتاج الأمر إلى كل مالدى من قوة لمقاومة النبات .

تراجعت بسرعة إلى أبعد مدى أستطيعه ، ومازالت الأوراق ملتصقة بذراعى وإن كفت باقى الفروع عن المحاولة . استعملت السكين فى فصل جزء الفرع القريب وكانت المفاجأة . انى أقسم على أن ما أقوله صحيحا ، أو على الأقل هو ماتوهمته . سمعت صرخة ألم خافتة ، وسالت من الفرع المفصول عصارة حمراء قانية ، هى أقرب ما تـكون إلى الدماء ؟ وسهل على بعد ذلك أن أنتزع الأشواك من ذراعى .

إن السائل ، سواء أكان عصارة نباتية من نوع خاص ، أو دماء حقيقية ،

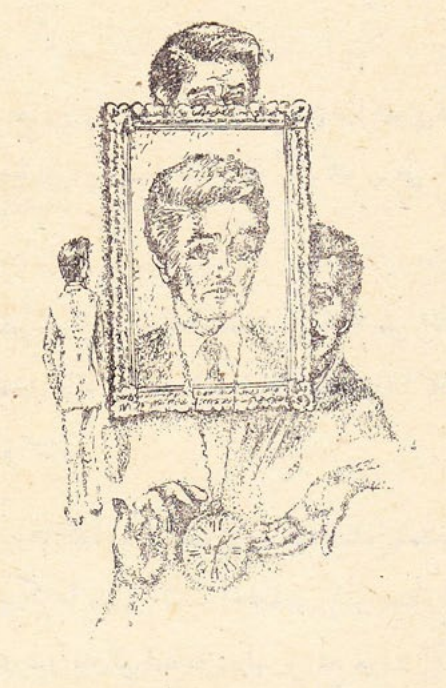
لايزال في معملي أجرى عليه الفحوص ، ولم أنته إلى نتيجة قاطعة حتى الآن لكن هنالك شيء أود أن أضيفه . هو إحساس شخصي ليس له أثر علمي إلا انه إحساس عميق . إنني لاأقترب الآن من النبات إلا ومعي السكين ، ويخيل إلى أن عيني البقرة ترقباني ، وانها أضحت تخشاني . أشعر بها ترقبني وتتحفز ، وتنتظر غفلة مني . لقد إقتربت أكثر من مرة بدرجة كافية ، ولم يتحرك النبات . ملاحظة أخيرة . بالرغم من وجود الزهرة ، ومن أن لونها براق جميل فإن الطيور لم تعد تحط على الشجيرة ، بل ولاتقترب منها . تراها في كل مكان في الحديقة تقفز على فروع الأشجار والشجيرات إلا في هذه المنطقة .

لقد انتهيت من سرد مالدى ، والآن هيا بنا إلى الحديقة لأريك الشجرة لكنني أحذرك ألا تقترب منها . لحظة واحدة حتى أحضر السكين ! ..

عاد ومعه المديه وما أن قام الضيف حتى ارتفع صراخ امرأة وطفل من الحجرة المجاورة واختلط الصراخ بنباح كلب غاضب . إندفع الرجل وضيفه ليفاجئهما منظر جعل الدماء تتجمد في عروقهما . رأيا فرعا من الشجرة وقد إلتصقت أوراقه بإحدى قدمي الطفل ، تجذبه من فراشه ، والكلب يحاول أن يمزقها . شاهدا فرعا آخرا يمتد من النافذة لتلتصق أوراقه بالكلب الغاضب ، بينما كانت الأم المسكينة ملقاة على الأرض مغميا عليها .

وقف الضيف لايستطيع الحراك ، وشاهد ، كأنما هو في حلم ، رأس بقرة صغيرة تنظر من النافذة ، وقد امتلأت عيناها شراهة ، ووحشية ، ثم شاهد الأب وهو يندفع بالسكين يقطع في الفرعين الممتدين ، ويضرب فيهما كالمجنون .

* * *



ساعة وصورة

هى الأثر الشخصى الوحيد الذى تبقى لدى من مخلفات والدى . مجرد ساعة جيب معدنية قديمة كانت تشترى بقروش ، ليس لها نصيب من إبداع الصناعة ، أو جمال الفن . حملتها معتزا السنوات بعد وفاته . كنت أشعر أنها تربطنى به بشكل ما ، وأنه ما يزال قريبا منى ، كما كان حال حياته . فى حجرة مكتبى ، أمامى وأنا أنقل النظر بينهما وبين صورته المعلقة على الحائط ، كنت أشعر بأنه كان يجلس معى يشاطرنى الفكر ، وكأننا نتحدث فى سكون .

أهدتنى زوجتى فى مناسبة ساعة يد حديثة ، ورأيت أن أجاملها شكراً فارتديتها غير راغب ، ونحيت الساعة المعدنية جانبا . ما إن أبدلت الساعتين حتى شعرت كأن قيدا قد أحاط بمعصمى ، وأن جزءاً منى فقد . حينما جلست إلى مكتبى تلك الليلة خيل

إلى أن وجه والدى الوديع الذى كان ينظر إلى بحنو قد اكتسى حزنا ... وربما بعض التأنيب .

لعلى كنت واهما ، ولا شك أن هناك من سوف يقول عن ثقة إننى فائق الاحساس ، وواسع الخيال .. حسنا ربما كنت كذلك .. على أى الأحوال ليس لدى دليل أقدمه .

في تلك الليلة شعرت أن الحجرة أضحت خاوية إلا منى إنتابنى إحساس غريب من الوحدة ، وطفقت اتطلع إلى الصورة عسى أن تعطينى ما كانت تفعل ، إلا أنها أضحت مجرد صورة صماء .

سارت الحياة سيرها المعتاد . لم ألبث أن نسيت الساعة المعدنية ، وداهمتنى شئون الحياة فألهتنى عن تذكرها . لعلى كنت أخلوا إلى كتبى مساء أتطلع إلى الصورة بين الفينة والأخرى ، وأتذكر الساعة .. لكن مع مرور الأيام نسيتهما تماماً حتى أننى كنت كثيراً ما أقضى المساء فى غرفة المكتب دون أن ألحظ حتى وجود الصورة .

مرت سنون أخرى ، وذات صباح بينما كنت أبحث فى بعض حاجياتى رأيت الساعة . نظرت إليها بحنين من راودته الذكرى ، ثم عدت إلى بحثى عما أريد حتى عثرت عليه . هممت أن أقفل الدرج حينما تملكتنى رغبة قوية أن أملأها ، ودهشت إذ سمعت دقاتها العالية ، وكأنها لم تهمل طوال تلك المدة ..

صممت أن أضعها على المكتب فتناولتها فى يدى ، واتجهت بها إلى الغرفة . ما أن تخطت قدمى الباب حتى كأن تيارا كهربائيا قد مس الساعة . إرتجت فى قبضتى ، وإهتزت معها يدى . ربما حدث هذا من تأثير تيار الهواء البارد الذى صادفنى .. أو ربما كان مجرد وهم ، أو خيال ..

توالت الأيام حتى كان يوم شديد الحرارة وكنت مرهقا من كثرة العمل . جلست إلى مكتبى أنهى بعض أعمالى ، خاصة وأننى إعتزمت السفر إلى الإسكندرية

فى اليوم التالى لألحق بماثلتى، شعرت بدوار خفيف ربما من شدة الحرارة أو من الإرهاق فى العمل أو من كليهما . نظرت إلى الساعة المعدنية مزمعا أن أتوقف عن العمل ، وأوجل ما بقى منه إلى الغد .

ذهلت لما رأيت . كان عقربا الساعة كأنما قد مسهما الشيطان . دارا بسرعة رهيبة بلا هدف واضح . دارا عكس إتجاههما الصحيح ، ثم توقفا برهة ، عادا بعدها إلى الدوران ثانية فى الإتجاه المعتاد . أعطتنى حركتهما إيحاء غريبا ، بأنهما يريدان أن يقولا شيئاً لم أتبينه .. فجأة توقفا عند الساعة الواحدة وسبع وعشرين دقيقـــة .

ربما كان ما حدث من تأثير الغشية التى شعرت بها لأننى حينما أغمضت عيناى وفتحتهما كان العقربان يشيران إلى الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة . هرعت إلى الخارج ونظرت إلى ساعة الحائط . كانت الحادية عشرة وثلاثين دقيقة . عدت إلى الساعة المعدنية ، ووجدتها كذلك . لابد إذا أن تلك الغشية التى أصابتنى هى السبب فى توهمى ما رأيت .

كان الوقت مبكرا بالنسبة لى فتناولت بعض المأكولات الخفيفة ثم عدت إلى مكتبى . قبل أن أجلس حانت منى التفاتة إلى صورة والدى ، وأقسم أن النظرة التى طالعتنى من الوجه كانت حزينة . ظللت برهات أتطلع إليها ، ولم تتغير النظرة . أرغمت نفسى على الجلوس ، وركزت تفكيرى فى عملى وسرعان ما إندمجت فيه ، وإن كنت لم أنس تماماً ما حدث .

دقت ساعة الحائط الثالثة صباحا ؛ وأنا ما زلت فى عملى . بحركة آلية نظرت إلى الساعة المعدنية إلى جانبى . كانت الواحدة وسبع وعشرين دقيقة تماما ! ؟ كنت واثقا أننى أثناء عملى قد تطلعت إليها وأنها وقت ذاك جاوزت الثانية . كيف رجعت القهقرى ؟ مددت يدى ، وتناولتها عسى أن تكون قد توقفت . ما أن لامستها حتى غشيتنى غمامة رمادية طمست معالم باقى الحجرة أمامى .

خيل إلى أن دقات الساعة قد تعالت حتى ملأت الحجرة ، وتردد صداها على الجدران .. لاليس هذا صحيحا .. إن الدقات لم تتجاوز أذنى .. والصدى لم يتجاوز جدران رأسى .. تكاثفت الغمامة الرمادية حتى كادت أن تكون سوداء .. وتوقفت دقات الساعة .

ظننت أنى سوف أجن ، أو يغمى على ، فأغمضت عينى أتمالك نفسى . لم تذهب الغمامة الرمادية لكن خيل إلى أنها إنقشعت من وسطها قليلا . تبدد الوسط كما يتبدد السحاب ، وشاهدت كأن سيارتى تخترق الحجب ، وتسير وسط الضباب فى طريق مرتفع . رأيت سيارة أخرى زرقاء اللون تندفع بسرعة خارقة من ورائى ثم تجاوزتنى . كان يمكننى أن التقط رقمها إلا أنى لم أذكر سوى الرقم الأخير ، أربعة . وصلت السيارتان عند المرتفع فى وقت واحـــد تقريبا ، وإن تقدمت السيارة الزرقاء قليلا . عند المرتفع بزغت فجأة سيارة نقل ضخمة ثم وصلت أذناى أصوات متباينة ، وأضحت الصورة مجموعة مختلطة لا تميز فيها بين الأشياء . وتحولت السحابة الرمادية إلى حمراء قانية .. حمرة الدم .

تمالكت نفسى ، وفتحت عينى وأنا أنتفض . نظرت إلى الساعة المعدنية فى يدى . كانت قد جاوزت الثالثة بقليل . يا لهذا ؟ ألم تقف عند الواحدة والنصف تقريباً ؟ هل جننت أم إختلطت الأمور ؟ ربما كنت إذا قد غفوت ، وكان مارأيته أضغاث أحلام . أو ربما كان الإرهاق قد نال منى أكثر ممـا تصورت . أعدت الساعة إلى مكانها وذهبت إلى فراشى .

إستيقظت فى العاشرة صباحا ، وابتدأت رحلتى إلى الإسكندريه فى الحادية عشرة والنصف . فى غمرة إستعدادى للرحلة نسيت تماما رؤيا الليلة الماضيـــة ، وتوجهت بسيارتى إلى الطريق الصحراوى . أنا سائق حذر بطبيعتى لا أميل إلى السرعة ، لهذا لم أصل الاستراحة إلا فى الساعة الواحدة . أوقفت سيارتى فى مكان الإنتظار وحينما هبطت منها كان أول شىء إسترعى إنتباهى السيارة الواقفة إلى

جوارى . كانت زرقاء اللون من النوع الرياضى السريع . خطر فى بالى أننى رأيتها قبل ذلك لكننى طرحت الخاطر جانبا .

تناولت بعض المرطبات وعدت لأستأنف الرحلة ، وكانت السيارة الزرقاء مازالت فى مكانها حينما تركت الاستراحة . مرت الدقائق تتوالى ، وحانت منى إلتفاته إلى الساعة أمامى ، ورأيت أنها قد جاوزت الواحدة وخمس وعشرين دقيقة . بحركة آلية نظرت فى المرآة ورأيت السيارة الزرقاء تندفع ورائى بسرعة رهيبة .

تنحيت بسيارتى إلى أقصى جانب الطريق لأدع للقائد أكبر فرصة للمرور . حينما حاذتنى السيارة كنا نصعد مرتفعا ، ولم يكن من الممكن أن نرى إن كان الطريق خاليا . فجأة تذكرت الحلم ، أو الرؤيا ان شئت التعبير . كانت السيارة تكاد أن تجاوزنى ، وحانت منى التفاته إلى الرقم . لم أتبينه كاملا أو لعلنى ركزت نظرى على الرقم الأخير . كان أربعة .

دون أدنى تردد ، ودون سبب ظاهر ضغطت على فرامل سيارتى بأقصى قوتى . كمن يتفادى حادث . بعد لحظات ظهرت على الجانب الآخر ، فوق قمة المرتفع سيارة نقل كبيرة . لم يكن هنالك مجال لتفادى ماوقع بعد ذلك ، خاصة مع السرعة الفائقة للسيارة الزرقاء .

سمعت أصواتا عالية مختلطة لإصطدام صفيح ، وحديد ، وصرخات عالية لم تتم رأيت السيارة الزرقاء ترتفع من الأرض تماما لتندفع بها سيارة النقل وتصطدم السيارتان بسيارتى . تهشم الزجاج الأمامى ، وتطايرت شظاياه ، وإرتطم رأسى بشيء ما . شعرت بالآلم مريعة فى صدرى ثم غابت الدنيا عن ناظرى .

مضت أيام قبل أن افيق فى المستشفى ويستطيع المحقق أن يستجوبنى . علمت أن ركاب السيارة الزرقاء الاربعة قد قتلوا فى الحادث كما أصيب سائق سيارة النقل ، وشخص آخر كان إلى جواره ، بجراح خطيرة .

حينما عدت إلى منزلي في القاهرة بعد ذلك بأسابيع كان أول ما فعلته أن رفعت الساعة المعدنية من مكانها على مكتبي ، وطلبت إلى زوجتي أخفاءها بعيداً .... ونظرت إلى الصورة معتذرا . لقد أضحى إجتماع الساعة والصورة في مكان واحد مصدر قلق لي . لو تركتهما معا فسوف أظل دائما أتوقع شيئا ، ولن تستقر لي حياة ... كلا لست أريد أن انذر بالمستقبل ، أو أن أخبر فيه ، حتى وإن كان في ذلك إنقاذ لحياتي .

* * *



مواء الهرة

كانت ليلة من ليالى الشتاء القارصة البرد ، وذهبت لزيارة صديق .. بدأت أستعد للرحيل عندما دق جرس الباب فتركنى ثم عاد بعد لحظات ومعه شاب لم أكن أعرفه . قدمه لى فرأيت أن من اللياقة أن أنتظر قليلا قبل أن أعود إلى دارى .

كان القادم شابا فى حوالى الثلاثين من عمره ، وسيما إلى أقصى حدود الوسامة ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، مفتول العضلات ، ومع هذا فقد لاحظت أن لونه ممتقع ، وأن حول عينيه هالتين سوداوين شأن من يقضى لياليه أرقا لاينام . كان قلقا كمن يريد أن يقول شيئا ، ولعله كان ينتظر منى أن أرتحل ليفضى بمكنونه إلى صديقنا المشترك .

قبل أن أنهض لأرتحل كان قد نفذ صبره وقام إلى باب حجرة الاستقبال وأغلقه ،

كان تصرفا غريبا حتى أن الفضول دفعنى إلى أن أتمهل لأرى متى ينفـد صبره ، قطع صوت صديقى تفكيرى .

— لماذا فعلت ذلك ياعلى ؟ .. أنت تعلم أننى أعيش بمفردى فى الشقة .

رد عليه الشاب بعصبية ظاهرة .

— لاتؤاخذنى إننى عصبى ، والواقع أننى أتيتك لأفضى بمتاعبى عسى أن تجد لها حلا فقد شل تفكيرى تماما .

لم يجبه صديقى ، وإنتظر أن يتم الزائر حديثه إلا أنه تردد ، ونظر إلى ، وهنا رأيت من واجبى أن أرتحل .

— إننى كنت أعتزم الخروج على كل حال .

قمت واقفا وقام الرجلان . هنا حدث شىء غريب . رددت الحجرة مواء هرة : إننى أستطيع أن أقسم أن المواء جاء من داخل الحجرة ، وليس من خارجها . ومع هذا فإن الحجرة كانت مغلقة ولم أر بها أية قطة ، فى اللحظة التالية سمعنا صرخة الضيف الجديد .

— إنها هنا .. لقد تبعتنى الملعونة .

بحركة عصبية سريعة وضع كلتا يديه على عينيه . ارتفع صوت القطة مرة ثانية ، لكنه لم يكن مواء ، وانما زمجرة ، كأنما هى تهجم على شىء . صرخ الضيف ثانية ، لكنه لم يرفع يديه عن وجنتيه . مرة ثالثة علا مواء الهرة ، وسقط الضيف على المقعد خلفه ، وانفجر فى البكاء .

وقفنا ، صديقى وأنا مذهولين . بحركة لاإرادية دارت عيناى فى الحجرة بحثا عن قطة كنت موقنا بأنها غير موجودة ، كما لم يكن هناك مكان يمكن أن تختفى فيه . ولم أعثر عليها . تقدم صديقى من الضيف ، ووضع يده على كتفه يسرى عنه بكلمات حتى هدأ قليلا ، لكن جسمه كله كان ينتفض . مد يديه كلتيهما ، وبصوت مرتعش قال كلمة واحدة .

— أنظر .

نظر صديقى إلى اليدين ، ونظرت . كانتا يدين قويتين ومع هذا فإنهما كانتا تهتزان بعنف . لم يظهر عليهما شىء فى بادىء الأمر ، لكن قبل أن نحول نظرنا عنهما بدأت خطوط تظهر على ظاهر الكفين . تسمرنا مبهوتين . لم يكن هنالك شك فى أن هذه الخطوط تبدو كآثار مخالب قط . إزداد ظهورها كلما مرت الثوانى ، وازدادت عمقا حتى بدت واضحة تتصبب منها الدماء . وسمعت صديقى يهتف .

— يا إلهى ..

إلتفت إلى وقال .

— لاتتركنا الآن .

هرع إلى خارج الحجرة ، وعاد بعد دقائق ومعه بعض القطن وصبغة اليود ، أخذ يضعها على جراح يدى الضيف .

وسأل صديقى .

— كيف حدث هذا ؟ تستطيع أن تتكلم أمام صديقى ، وربما ساعدنا وجوده .

لم يتردد الضيف فى هذه المرة . إندفعت الكلمات تخرج من فمه كأنما هى طلقات رصاص .

— يحسن أن أخبركما القصة من أولها ، وربما سوف تصدقانى بعد الذى شاهدتماه . رأيتها ، أعنى زوجتى ، أول مرة فى النادى . كانت هادئة ، وديعة ، تتفجر أنوثة حتى أننى صممت أن أتعرف إليها . قابلتها مراراً قبل أن يقدمنى إليها أحد اصدقائى ، ومنذ ذلك الوقت تآلف قلبانا ، لم يكن لديها ماتخفيه ، أو هكذا بدت لى . هى ابنة وحيدة لوكيل وزارة . وتقطن قريبا من النادى ،

وقد أتمت دراساتها الثانوية فحسب ، إذ أن والديها لم يقبلا أن تلتحق بالجامعة .. أو هكذا إدعت .

كان صوتها خفيضا ناعماً مس شغاف قلبى ، والواقع أن كل ماقالته ناسبنى إذ أننى أيضاً لا أحب الجامعيات ، وأفضل أن تبقى المرأة فى بيتها ترعى زوجها ، وأولادها . أخبرتنى أنها ، وإن لم تلتحق بالجامعة ، إلا أنها مغرمة بالقراءة ، تقضى فيها معظم أوقاتها ، ولا تأتى إلى النادى إلا لفترات صغيرة ، ثم هى لا تبرح منزلها بعد ذلك .

شيء واحد فقط لم يعجبنى هو أنها كانت لديها قطة فى المنزل شغوفة بها لا ترضى عنها بديلا . أنا شخصيا لا أحب القطط ، وأعشق الكلاب ، ولدى كلب من نوع الولف أعتز به جداً . حينما أخبرتها بذلك قطبت ما بين حاجبيها ، وإنتقلت بالحديث إلى موضوع آخر .

شيء آخر لاحظته وإن لم أعره إهتماماً فى ذلك الوقت . حينما كنا نسير لم تقربنا كلاب النادى مطلقا ، بل إن أحدها كان مقيداً إلى السور الحديدى ، وحينما إقتربنا منه هب من رقدته كأنما أفزعه شيء ، وبذل جهوداً جبارة ليستخلص من قيده . خشيت أن يهاجمنا ، فصحبتها بعيداً عنه ، ورأيت أنه هدأ ، وإن كانت عيناه ظلتا تتابعانا .

صممت أن أجعلها تغير رأيها فى الكلاب ، فإنتهزت فرصة تواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى بالنادى ، وصحبت معى كلبى عسى أن تألفه ، إذ أننى ، أقول لكما الحق ، كنت قد صممت على التقدم بطلب يدها . شاهدتنى من بعيد ، ودهشت إذ رأيتها تترك مقعدها ، وتهرع إلى سيارتها . جريت وراءها مناديا إلا أن كلبى توقف فجأة حينما إتجهنا إليها ، وذهبت جهودى فى أن أزحزحه من مكانه هباء .

لم أرها بعد ذلك أياماً ، وأخيراً جاءت إلى النادى . ذهبت إلى لقائها إلا أنها أشاحت عنى بوجهها غاضبة ، وحين سألتها عن السبب قالت .

— أنت تعلم أننى لا أحب الكلاب ، وهذه الوحوش لا تحبنى أيضاً لماذا أتيت بكلبك ؟

حاولت أن أقنعها بأنه كلب لطيف ، وأنها لو صبرت قليلا لأحبته دون شك ، إلا أنها رفضت حتى الإصغاء إلى ، وقالت بلهجة قاطعة :

— إن كنت تريد أن تستمر معرفتنا فعليك أن تتخلص من الكلب .

عز على أن لا تقبل حتى مجرد المحاولة إرضاء لى ، إلا أننى كنت غارقا فى الحب فلم أر مانعـا من أن أضحى بـكلبى ، خاصة وأن أختى الصغيرة متعلقة به ، فصممت أن أعطيه هدية لها . أخبرتها بما قررت فابتسمت وقالت .

— بشرط ألا تأتى به أختك إلى النادى .

تضاحكنا ، ومر الحادث بسلام . عادت علاقتنا طبيعية بعد هذا حتى جاء اليوم الذى قررت فيه أن أطلب يدها سألتها إن كانت تقبل أن أذهب مع والدتى إلى زيارة والديها فى المنزل إذ أن والدى متوفى ، فإستمهلتنى إلى اليوم التالى ، ولا بد أنها كانت تستأذن والديها .

فى اليوم التالى أخبرتنى بأن والديها يسرهما أن يستقبلانا فى موعد حددته ، وكان معنى هذا أنها قبلت شخصيا الزواج منى ، وأن الأمر أضحى متوقفا على رضاء والديها . فى الموعد المحدد ذهبنا ، والدتى وأنا ، وإستقبلنا الأب ، والأم مرحبين . كانا شخصين طيبين إلى أقصى حدود ، حتى أننى أحببتهما منذ الوهلة الأولى . بعد فترة دخلت الفتاة تحمـــل بعض المرطبات ، والحلويات ووراؤها هرة تتبعها :

كانت هذه أول مرة أرى فيها القطة . لم يكن فى شكلها ما يستلفت النظر . مجرد قطة من النوع الرومى ، ليست كبيرة الحجم جداً . أما لونها فـكان أيضا عاديا من الذى يطلقون عليه المشمشى . سار كل شيء فى طريقه العادى أما أنا فـكنت محلقا فى آفاق السعادة لا أكاد أن أرفع عينى عن الفتاة . جاءت القطة تتمسح فى ، شأن القطط ، فداعبت شعرها الناعم دون أن ألقى بالا لما حولى . بعد أن خرجنا سألتنى والدتى إن كنت قد لاحظت شيئا فأجبتها بأنى قطعا لاحظت جمال خطيبتى المستقبلة، إلا أنها قالت .

— كلا . لا أعنى هذا . هل رأيت كيف كان الوالدان ينظران برعب إلى القطة ؟

— برعب ؟! ما هذه الأوهام يا أماه ؟

— كلا يا بنى ليست أوهاما لقد حل عليهما الوجوم عند حضور الفتاة ، وقطتها ، ولم يتكلما إلا ردا على كلامنا .

ضحكت وسألتها إن كانت ستبدأ تمثيل دور الحماة ، فهزت رأسها نفيا

— كلا يا بنى .. إن الفتاة وقطتها شيء غريب ، وددت لو راجعت رأيك فى زواجك منها .

— أماه .. إننى لا أهتم بالقطة ، وأحب الفتاة وهى التى إختارها قلبى .

تنهدت مستسلمة ، ولم تفه بكلمة بعد هذا . تمت الخطبة وبعد أشهر تم الزواج. عشت فى سعادة لا تشوبها شائبة ، هذا إذا استثنينا العلاقة الغريبة بين زوجتى والقطة ، وبغضها الشديد للكلاب . كانت زوجتى مثالية لم تأل جهدا فى راحتى بل وتدليلى . وإن ثارت بيننا مناقشة حول الإنجاب لأن زوجتى لم تكن تحب أن تنجب فى حين أننى من المغرمين بالأطفال . لم أرد أن أصل بالمناقشة إلى حد الغضب لأننى لم أود أن أعكر صفو حياتنا فى البداية فتركت الأمر للزمن ، واثقا أنها سوف تقتنع بوجهة نظرى فى وقت قريب .

هنالك أشياء كثيرة حدثت لم أعرها ساعة حدوثها إنتباها ، أو لعلنى أرجعتها إلى الصدفة ، لكننى حينما أستعيدها على ضوء ما أعلمه الآن تبدو ذات مغزى مختلف . مثل ماحدث لابنة عمى حينما جاءت تزورنا لتهنئتنا بالزواج . ذكرت ممازحة أننا كنا خطيبين ، وفسخنا الخطبة . رأيت وجه زوجتى يتغير وقد علاه الغضب . وحينما لاحظت ابنة عمى ذلك إختصرت زيارتها وخرجت . بعد أن أغلقت باب الشقة سمعت صراخها على الدرج ، ففتحت الباب وهرعت إليها لأرى الدماء تسيل من ساقيها . سألتها عما حدث ، فأخبرتنى بأنها تعثرت فى قطة ، وأن القطة أنشبت مخالبها فى ساقيها ، ومزقت جلدها . أردت أن أعود بها إلى مسكننى ولكنها أبت مرتعبة ، وفضلت أن أصحبها إلى أقرب صيدلية .

أذكر أيضا قصة ذلك الموظف بالاستيراد الذى كان يضايقنى فى عملى كثيرا . حدث ذات مرة أنه رفض أن يوافق على بعض التراخيص الهامة ، وعدت إلى منزلى مكتئبا . وحينما سألتنى زوجتى عن السبب أخبرتها ببراءة وسألتنى عن إسمه ، متعللة أنها تعرف أشخاصا من أقاربها لهم علاقة بالإدارة وربما يفيد أن يتوسطوا لديه . أخبرتها عن الإسم ثم نسيت الواقعة فى غمار عملى . مضت أيام وحينما ذهبت إلى الإدارة لأحاول أن أقنع الموظف المسئول بوجهة نظرى ، إتضح أنه متغيب فى إجازة مرضية . حينما إستفسرت دهشت حينما أنبئونى أن قطا هاجمه أثناء عودته ليلا إلى منزله ، وأصابه بخدوش خطيرة .

لاحظت أيضا أن والديها لم يحضرا لتهنئتنا ، وهو شىء غريب ، خاصة وأنها وحيدتهما . حينما سألتها عن السبب طرحت الموضوع جانبا ببساطة ، قائلة إن هنالك سوء تفاهم بين الثلاثة . عرضت ان أتدخل لأسوى أى سوء تفاهم إلا إنها أبت . وحينما ألححت أصرت بشدة ، بل ذهبت إلى ان نهتفى شبه آمرة ألا أتدخل فى الأمر ، أو حتى أزورهما . لم استمع إلى قولها وانتهزت فرصة ، وذهبت إلى منزلهما .

فتحت لى والدتها الباب وحينما رأتنى بان الفزع عليها . لم تدعنى إلى الدخول وسمعت مواء قطة ، ثم زمجرتها ، وسرعت الأم بغلق الباب فى وجهى . كان تصرفها غير مفهوم ، وغير لائق ، وكان لابد لى ان استمع إلى تفسير لما حدث . طرقت الباب بشدة ولم تجبنى الأم لفترة ثم سمعت صوتها كأنما هى تبكى ، ورجتنى أن أبتعد ، وألا أعود ثانية .

كان تصرفا غريبا جدا ، ولو أننى أرجعته حينئذ إلى ان الخلاف بين زوجتى ووالديها أكبر مما ظننت ، وقررت فى نفسى أن أزور حماى فى مكتبه فى اليوم التالى لأحاول تسوية الموضوع . لما عدت إلى المنزل فوجئت بزوجتى تستقبلنى بغضب شديد ، وتسألنى عن سبب مخالفتها وذهابى إلى منزل والديها . أجبتها بهــدوء أننى لأحب لزوجتى أن تكون عاقة ، وأنه لاعيب مطلقا فى أن تذهب إليهما وتعتذر حتى إن كانت تظن أنهما مخطئان ،

إزداد غضبها ، وانتهى بها الأمر أن نهتنى نهيا قاطعا عن التدخل . أخذتها بالحزم ، وطلبت منها أن تذهب لإرتداء ملابسها حتى نقوم بزيارتهما ، ولما رفضت قبضت على معصمها وقدتها بقوة ، لـكن بغير عنف ، إلى حجرة النوم . هنا سمعت زمجرة القطة فالتفت إليها . رأيتها تقفز من الأرض كأنما تبغى عنقى ، فاضطررت أن أترك معصم زوجتى ، وأضربها ضربة ألقتها على الأرض .

سمعت صرخة صادرة من زوجتى ، وجرت القطة لتختفى من أمامى . حينما أعدت النظر إلى زوجتى كانت تضع يدها على وجنتها كمن تلقى لطمة ، والواقع أننى رأيت آثارها ، وإن أدعت أنها اصطدمت بشىء فى الصباح .

حوادث كثيرة مثل ماسبقت ، صغيرة ، ومتباعدة ، بحيث لاتستطيـع أن تربط بينها . بعضها أنسيته ، ربما كانت هنالك رابطة لم أنتبـه إليها ، أعنى القطة . دائما كانت القطة تظهر بشـكل ، أو آخر ، إلا أننى لم أعر الأمر إهتماما ،أو أوليه تفـكيرا . جاء اليوم الذى اضطررت فيه أن أنتبه . كنت قد صممت على أن أتجاوز عن منع زوجتى لى من زيارتى والديها ، فالوالدان بالنسبة لى شىء مقدس . كنت متأكدا أن زوجتى سوف تحمد لى عملى بمجرد أن تعود العلاقة الطبيعية إلى مجاريها .

ذهبت إلى والدها فى مكتبه ، وتلقانى مرحبـــا . طلبت منه أن ألقاه خارج المـكتب لأناقشه فى موضوع سوء التفاهم مع إبنته ، وتهدج صوته ، وهو يقول إنه سيخرج معى ويعتذر عن أعمال يومه . بعد قليل كنا فى أحد المقاهى المطـلة على النيل منفردين فى منضدة بعيدة عن الأسماع .

قبل أن أستفهم عن سبب الخلاف إبتدرنى متسائلا إن كنت قد لاحظت شيئا غريبا على زوجتى . كدت أن أنبئه عن شدة تعلقها بالقطة ثم استسخفت نفسى فأجبت بالنفى . جاء سؤاله التالى مفاجأة لى حينما طلب هو رأيى فى علاقتها بالقطة . أجبت بعدم إكتراث مصطنع أن هذه مسألة لم أوليها إهتماما . تشابـكت يدى الرجل ، وتلاعب فى أصابعه بحركات عصبية وهو يردد .

ــ كلا .. يابنى .. كلا .. إن المسألة أخطر مما تتصور .. إن القطــة ليست حيوانا ، إنها شيطان ، وقــد حولت إبنتنا الوديعــة إلى شيطانة مثلها .. أراك لاتصدق .. لـكن هذا هو الواقع ، وأستطيع أن أذكر لك عشرات الحوادث التى يشيب لها الولدان .. لقد بدأت إبنتنا تتغير حينما قرأت كتب السحر .. وذات يوم دخلت القطة فجأة المنزل .. واتجهت إليها رأسا .. لم ندر من أين جاءت ، ولا كيف دخلت . منذ ذلك اليوم تغيرت الفتاة تماما حتى أننا أصبحنا نخشاها .. مامن شخص أغضبها إلا وقع له حادث .. حينما أحبتك فرحنا ، أمها وأنا ، وأملنا أن تعود إلى حالتها الأولى .. لـكن يبدو أن لاأمل فى ذلك .

حاولت أن أخفف عن الرجل إذ بدا لى أنه سوف ينهار . وعدته أن أبعد القطة عن زوجتى ، ورأيته يهز رأسه نفيا بأسف .

ــ كلا يابنى .. إنك لاتستطيع .

حينما عدت إلى المنزل بعد ذلك إستقبلتنى زوجتى بغضب وسألتنى أنى كنت .. أخبرتها عن مقابلتى لوالدها ، وقلت مازحا إنه أيضا لايحب القطة ، وإننى وعدته أن تبعدها عنها . بهدوء غريب أبت ، وطلبت منى ألا أتحدث فى هذا الموضوع . ألححت عليها مذكرا إياها بأنها قد تهدم حبنا ، ولأول مرة رأيت الدموع تنساب على وجنتيها .

ــ إنـكم لاتفهمون .. إنى لاأستطيـع أن أبتعد عنها .

جلست إلى جوارها وضممتها إلى صدرى .

ــ حتى لو طلبت إليك ذلك .

إنخرطت فى البـكاء ، وأخذت أكفـكف دموعها ،وأسرى عنها مهونا عليها الأمر لـكنها لم تهدأ . من خلال نشيجها تـكلمت .

ــ إنك لاتفهم إننى أحبك .. لـكننى لاأستطيـع أن أبتعد عن القطة .. حتى ولو أدى الأمر إلى أن أفقدك .

سألتها متعجباً

— لماذا ؟

لم ترد ، وازداد نشيجها ، ولم تكف حتى حولت الحديث إلى مجال آخر . كنت قد إعتزمت أمراً لم أخبرها به . أعددت لحاق المدة . . بعد أيام إصطحبت زوجتي بحجة شراء بعض الملابس لها ثم إستأذنت منها ، وتركتها . عدت مسرعا إلى المنزل ومعي جوال متين .

فتحت الباب ، وناديت على القطة . لم تظهر بادىء الأمر ، وحينما دخلت الصالة إندفعت كأنما من الهواء تريد وجهي . إذا قلت لكما إنه دار قتال حقيقي بكل مافى هذه الكلمة من معنى بيني وبين القطة فربما تسخران مني ، تجرحت يداي ، لكنني أفلحت أن أبعدها عن وجهي . أخيراً أمكنني أن أضعها في الجوال ، وأخرج بها من المنزل ، وأضعها في صندوق السيارة الخلفي .

أنا لا أحب قتل الحيوان ، لهذا صممت أن أبتعد إلى أقصى ما أستطيع ، وأتركها في الصحراء . إتخذت الطريق الصحراوي إلى الاسكندرية ، وتخطيت الإستراحة وعلى بعد مائة وثلاثين كيلو متراً من القاهرة أوقفت السيارة ، وأخرجت الجوال وفتحته .

ينتظر المرء من قطة عادية في مثل هذه الظروف أن تجرى ، أو أن تندفع عودا إلى السيارة أو أى شيء إلا أن تخرج بهدوء ، وتقف بلا حركة وتنظر إليه . وهذا ما فعلته . تسللت بهدوء غريب خارج الجوال ، ووقفت تنظر فى عيني مباشرة . لم أنتظر ما تفعل بعد ذلك . بسرعة عدت إلى السيارة ، واغلقت بابها ثم أدرتها إلى طريق العودة . حانت مني إلتفاته إلى القطه ورأيتها تقف حيث هي بلا حراك ، تتابعني بنظراتها .

حينما عدت أخبرني البواب أن زوجتي إستقلت سيارتها ولم تعد حتى الآن . دخلت إلى منزلي ، وإستلقيت على الفراش منهكا ونمت . إستيقظت على صوت الباب الخارجي وهو يغلق ، وبعد لحظات وقفت زوجتي على باب الحجرة وهي تحمل بين

يديها القطة . كان الغضب مستوليا عليها حتى أنها لم تستطع الكلام . نظرت إليها مبهوتا وأنا أتساءل .

ـ كيف .. ؟ .. كيف إستطعت الإهتداء إليها بهذه السرعة ؟

لم تجب على سؤالى ، وخرجت من فمها كلمات غاضبة متقطعة .

ـ ألم أحذرك الا تحاول إبعاد قطتى أو مسها ؟ لولا أنى أحبك لكنت الآن فى عداد الأموات . عليك أن تعدنى وعدا قاطعا ألا تحاول ذلك مرة ثانية .

لست أدرى لماذا تملكنى لأول مرة غضب شديد . غضب بارد مكتوم . ربما كان هذا من أثر هزيمتى فى أن أتخلص من القطة اللعينة . بهدوء يخفى وراءه نارا متأججة تساءلت

ــ وإذا لم فعل ؟

توسلت زوجتى مبتهلة

ــ أرجوك ليس لك خيار فى الأمر

إزداد إصرارى فكررت السؤال

ــ وإذا لم أفعل ؟

إجابتى ونبرات الأسف فى صوتها

ــ لست أدرى ماذا سوف تكون العاقبة ، لكن المقطوع به أن هذا سيكون نهاية علاقتنا .

ــ أتفضلين قطة على زوجك ؟

هزت رأسها وقالت بيأس مرير .

ــ أنت لا تفهم .. ليس لى أنا أيضا خيار فى الأمر .

سمعت نفسى أضحك . ضحكت رغما عنى أسى . ما هذا السخف ؟ كيف يمكن أن تكون هناك مفاضلة عند زوجتى بينى وبين قطة ؟ إن مجرد التفكير فى الموضوع يبدو لى سخيفا ،

— دعيني أضع الأمور في نصابها . إنني لا أقبل أن يفاضل أحد بيني وبين قطة ، ناهيك بزوجتي . تقولين أن ليس لك خيار في الأمر ، وأنا أقول إن لك الخيار . لك أن تختاري بيني وبينها ، فلن أقبل أن أبيت ليلة واحدة وهي في المنزل .

اسمعي .. إذا كان هنالك خطر لا أعرفه صارحيني ؟ وسوف نجابهه سويا ، ونتغلب عليه .

تفوهت بالجملة الأخيرة برقة عسى أن تؤثر فيها ، لكن وجهها كان قد إكتسى قناعا من الصرامة ، وتركزت عيناها علي لا تتحركان ولا تطرفان . كميني الهرة . بصوت غريب علي تكلمت وجاءت أقوالها تهديدا ووعيدا .

— إنني أنذرك . لا تضطرني إلى المفاضلة ، وإلا فإنني سوف أختارها .

— إذا فلا بقاء لي في المنزل .

— إن خرجت زالت حمايتي عنك .

— ما معنى هذا ؟

— معناه أنك لن تر إمرأة غيري . إنني اهواك وما دمت سوف تبتعد عني فلن تنالك أخرى .

كان هذا أكثر مما أحتمل . أسرعت أجمع ملابسي في حقيبة . هنا هجمت علي القطة . كنت منحنيا أغلق الحقيبة حينما قفزت على ظهري ، وأنشبت مخالبها في رقبتي . لم يكن لدي شك في أنها كانت سوف تغرز أنيابها ، وربما كان في ذلك القضاء علي ، لكن صوت زوجتي أوقفها . إذا كان عندي بعض من التردد قبل ذلك في ترك الشقة ، فقد حسمت هذه الحادثة الأمر .

توجهت إلى مسكني القديم ، ولم تسألني والدتي عن سبب قدومي ، وأسرعت باعداد غرفتي . كان هذا منذ أكثر من شهر . في خلاله تعرضت أكثر من ستة مرات لما تعرضت له أمامكم الآن . حدث مرة وأنا نائم ، ولولا أنني أسرعت

بإخفاء وجهى فى الوسادة لذالت الملعونة مبتغاها . وحدث مرة فى مكتبى حينما تأخرت يوما فى المساء لقضاء بعض أعمالى العاجلة . لا يوجد مكان أذهب إليه إلا وتلاحقنى القطـــة . فى الأسبوع الماضى كنت فى المنصورة لقضاء بعض الأعمال وهاجمتنى فى غرفتى بالفندق .

كان المواء يسبق هجومها دائما ، مما يعطينى إنذارا كافيا ، ولو أنه أيضا يحطم أعصابى حتى أننى أقفز لمجرد سماعى مواء أية قطة . إننى أفكر أحيانا فى أن زوجتى تتعمد هذا الإنذار ، ربما لتحطم أعصابى ثم تنفذ وعيدها ، وربما لأنها تريد أن تضطرنى إلى العودة صاغرا إليها ، وربما لأسباب أخرى لا أعرفها . وأخشى ما أخشاه أن توقف الإنذار وتهاجمنى القطة .

انتهى من سرد قصته ، ولبثنا فترة صامتين . أخيرا قال صديقى .

— هذه القطة يجب أن تموت . اسمع هل تتركها زوجتك أحيانا فى الشقة بمفردها ؟

— أجل . بعد انفصالنا تذهب كل يوم الى النادى لتتناول طعام الغذاء .

— هذا حسن . هل لا زال معك مفتاح الشقة ؟

— طبعا .

— اذاً خير البر عاجله . ما رأيك في أن نتقابل عندى هنا ظهر الغد ثم نذهب ثلاثتنا إلى الشقة ؟ !

التفت إلى ناحيتى مستفهما ، فأجبت بالإيجاب ، وأضفت أنه ربما يكون الأفضل أن نقضى الليلة ، نحن الثلاثة ، فى شقة صديقنا المشترك . ووافقا . لم يحدث شيء فى المساء . وحينما حل الصباح اتصل كل منا بعمله يعتذر عن الذهاب ، وقضينا الساعات الباقية فى الإعداد .

اشترينا جوالا متينا ، ووضعنا به بعض الحجارة الثقيلة ثم وضعناه فى الصندوق الخلفى لسيارة صديقى . لم يكن أحدنا يرغب فى قتل القطة بالرغم مما سمعنا . ومع هذا فكان من الواضح أن لاحل آخر للمشكلة ، لهذا فضلنا أن تموت غرقا .

قبيل الظهر أوكلوا إلى أن أرقب خروج الزوجة حيث أنها لا تعرفنى ، وأعطانى الشاب رقم سيارتها ، ووصفها ، وأوقفا سيارتهما فى أحد الشوارع الجانبية . حتى لا يحدث خطأ ذهبت إلى جراج المنزل مدعيا أن إعلانا نشر فى الجرائد عن بيع سيارة بالجراج وأننى أرغب فى شرائها .

رأيت سيارة الزوجة ، وتأكدت من رقمها ، ووقفت أسأل السائق عن السيارة المزعومة المعروضة للبيع . أنكر الرجل معرفته بالموضوع ، لكنه إشتم رائحة العمولة فراح يحدثنى عن سيارات يعلم أن أصحابها يودون بيعها . أثناء حديثنا دخلت سيدة واتجهت إلى السيارة . كان يمكن أن أعرفها حتى لو لم يكن وصف الشاب لها وصفا دقيقا . على قدر جمالها كان فيها شىء غير عادى ينفر المرء منها . كانت تسير بخفة متناهية ، ليس كما تسير السيدات ، وإنما كما تتسلل الهرة .

تركنى السائق وهرع إليها ينظف السيارة ، وبعد لحظات انطلقت خارجة . حينما عاد سألته عنها ، زيادة فى الحيطة ، مدعيا أننى أعجبت بسيارتها ، وتأكدت بصفة قاطعة أنها هى . لم يبق هنالك داع لبقـــائى ، فتركت الرجل وهو مايزال يذكر لى أنواع السيارات التى يظن أن ملاكها مستعدون لبيعها .

هرعت إلى صديقى والشاب ، وعدنا ثلاثتنا إلى المنزل وأوقفنا السيارة عند الباب . صعدنا إلى مسكن الشاب ، وفتح الباب ثم أغلقه وراءنا . كانت الشقة متوسطة الحجم تتكون من أربع حجرات وصالة ، وكان من الجلى أن صاحبتها لا تعتنى كثيرا بنظافتها . لم نر القطة ، وافترقنا نبحث فى الحجرات .

كنت أبحث فى حجرة الطعام حينما ارتفع صوت مواء ، ثم زمجرة قتال ، وصرخة الشاب . اندفعت ، واندفع صديقى إلى حيث الصوت . كان صادرا من غرفة النوم . حينما دخلنا فاجأنا منظر مريع . كانت القطة تقاتل بوحشية الشاب الذى يحاول أن يقبض عليها ، وقد سالت الدماء من يديه بصورة بشعة .

ما أن دخلنا حتى أغلقت باب الحجرة . رأتنا القطة فقفزت فوق دولاب الملابس . أسرعت خارجا ، وأحضرت الجوال ، وحينما عدت كانت يدا صديقى مخضبتين

بالدماء . استغرق الأمر عشرة دقائق حتى استطعنا ادخال القطة فى الجوال . كان قتالا حقيقيا لم يسلم أحدنا فيه من مخالبها ، وأنيابها ، كما لم يسلم أثاث الحجرة من آثاره .

احتملنا الجوال ولم تمض نصف ساعة حتى وصلنا بالسيارة إلى مكان مهجور من النيل ، وألقيناه وبداخله القطة الملعونة ، ثم عدنا . فى طريقنا إلى العودة ، بالرغم مما قاساه الشاب ، كانت حالته أهدأ . شكرنا على مافعلناه ، وحينما سأله صديقى عن خطواته التالية أخبرنا أنه سيعود إلى داره ويحاول الصلح مع زوجته . قال :

— اننى أحبها ، وهى تحبنى . وأعتقد أنها ان غضبت لموت القطة فسوف يزول هذا مع الزمن ، ولن نذكره الا كـكابوس انقضى .

وصلت السيارة إلى منزله ، وهبط منها ، وقبل أن نودعه هرع إليه البواب . سمعناه يلبئه أنه مطلوب على عجل فى النادى . أشار إليه صديقى ولماداف فى السيارة انطلقنا ، حينما وصلنا استقبلنا رجل فى حوالى الأربعين فهمت من حديثه أنه صديق للعائلة . وأنه طبيب . قال .

— عليك أن تتحمل الصدمة ياصديقى بشجاعة إنها زوجتك . لقد ماتت .

— ماذا ؟ كيف ؟

بانت الحيرة على وجه الطبيب

— الواقع أن ماحدث شيء غريب . كنت جالساً مع بعض أصدقائى نتناول وجبة الغذاء ، حينما لاحظت أن زوجتك ، وكانت تجلس إلى مائدة قريبة ، تصارع الهواء كأنما هى تقاتل أشخاصا . حسبت أنها قد فاجأتها نوبة صرع ، أو ما شابه ، فأسرعت إليها لسكنها أنشبت أظافرها فى يدى ، وكادت تمتد إلى وجهى ، وعينى إلا أننى تفاديتها . حاولت أن أهدئها فلم أستطع . صدقنى أن الأمر استلزم مجهود ثلاثة منا حتى تمكنا بعد لا أقل من عشرة دقائق من التغلب عليها ، ولم يسلم واحد منا من الخدوش . هدأت فجأة فحملناها ، ووضعناها على الأريكة فى إحدى

الحجرات الداخلية . كان تنفسها ثقيلا كمن هو حبيس في مكان ضيق لا يستطيع فيه التنفس على حريته . حاولت إسعافها إلا أن مجهوداتي ذهبت هباء . بعد نصف ساعة كانت تضرب ثانية في الهواء . لـكن ليس كمثل ماحدث فى المرة الأولى . كيف أصف . لم تـكن تقاتل أشخاصا ، وإنما كانت كمن يختنق ، ويقاتل فى سبيل الحياة يريد التنفس . أخذت تضرب فى الهواء بيديها ، وقدميها ، وتحاول أن تتنفس ولو أنه بدا عليها أنها تبتلع ماء ، ولا تستنشق هواء . أنا أعرف أن كلامى لا معنى له بالنسبة لك ، لـكن هذا ما رأته عيناى . صدرت منها حشرجات ، ليس كمثل البشر ، لـكنها أقرب إلى القطط ، ثم ماتت . كشفت عليها لا تأكد من موتها ، وتأكدت . إنما ما يحيرنى هو أننى لا أشك فى أنها ماتت غرقا . جميع الأعراض قاطعة ، ولا شك عندى فى هذا ، ومع هذا كيف أكتب هذا فى تقريرى ذلك وقد ماتت فى الحجرة على الأريكة .

تبادلنا نحن الثلاثة النظرات . كانت الدموع تنساب من عينى الشاب ، وعرفنا نحن الإثنان ما يدور فى تفـكيره . هل قتلنا زوجته ؟

* * *

كنت أظن أن القصة إنتهت عند هذا الحد ، فالقطة ماتت ، وزوجته توفيت ، إلا أنه لم تمض أيام على الحوادث الماضية حتى إستدعانى صديقى . حينما ذهبت رأيت الشاب جالسا فى حجرة الإستقبال ، وبدا لى أنه كان يبكى .

بعد أن تبادلنا الـكلمات المناسبة قدم إلى الشاب عدة أوراق ، وقال والدموع تترقرق فى عينيه .

أعتقد أن من حقك أن تقرأ هذا . هو خطاب موجه إلى ، كتبته زوجتى ، عثرت عليه ضمن حاجياتها . سوف تلاحظ أنها بدأته قائلة زوجى الحبيب ، ولست أعتقد أن حبا فى العالم يفوق حبها . هلا قرأته ...؟!

قرأت .

« عندما تقرأ هذا لن أكون معك ، لقد رتبت الأمور بحيث لا يكون لديك سوى أحد أثنتين . إما أن تعود لتعيش معي مسلما بوجود القطة ، وإما أن تقتلها . أنا أعلم طبيعتك ، وأعلم ماذا سوف تختار . سوف تقتلها إعتقادا منك بهذا أننا سوف نعيش سعداء ، غير أنني سوف أموت . والواقع لو أن الشجاعة واتتني لقتلتها بنفسي أو إنتحرت . لقد راودتني هذه الفكرة كثيرا ، إلا أنني كنت دائما أجبن من أن أنفذها ، فأوجلها آملة أن تحدث معجزة .

سأروي لك قصتي حتى تفهم ، وربما تصفح عندما تتبين كم أحبك ، وربما تستغفر لي ربي فلست أجرؤ حتى على طلب العفو منه . لن أعتذر عن الحوادث ، وسأقصها عليك كما هي غير مضيفة سوى أحاسيسي ، ومشاعري .

لست أحسب أن كثيرات لاقين ما تمتعت به وأنا صغيرة من حب وعطف . أنت تعلم أنني وحيدة والداي ، وتعلم ماهما عليه من رقة وطيبة قلب . منحاني كل ما يستطيعان من حب ، وأحاطاني بسياج ضخم من الحنو . لم يكونا يشعران بأن لي رغبة إلا لبياها ، كثيراً قبل أن أطلب .

سارت الأمور على هذا المنوال حتى بلغت السادسة عشرة . أنا بطبيعتي غير ميالة إلى الإختلاط ، وكانت النتيجة أن أضحت القراءة هوايتي . كثيرا ما جاءني والدي في الساعات الأخيرة من الليل يطلب مني أن أنام . قرأت أضعاف ما تقرأ البنات في سني . سواء في الأدب ، أو القصص ، أو التاريخ ، أو غير ذلك . كنت آخذ النقود من والدي لأذهب إلى المكتبات الصغيرة أشتري منها الكتب المستعملة .

في إحدى هذه المكتبات قابلتها . سيدة رائعة الجمال في أوائل العقد الرابع من عمرها . كانت تقلب في الكتب القديمة التي علاها التراب . لم تكن الكتب مصفوفة بنظام أو طبقا لفهارس ، بل إن أغلبها لم يكن في موضعه ، ومع أن السيدة كانت شديدة الأناقة إلا أنها بدت غير مهتمة بما يصيب ملابسها من غبار أو أقذار . كان هذا شيئا غريبا إن دل على شيء فإنما على حبها الشديد للقراءة .

محادثنا . سألتنى عن نفسى وعائلتى ، وسألتها . أخبرتنى أنها أرمل توفى عنها زوجها ، وأنها تعيش بمفردها لا أهل لها ولا ولد ، وأنها قصرت حياتها على القراءة . دعتنى لزيارتها قائلة إن عندها مكتبة ضخمة فإعتذرت لضيق الوقت ، وبأن والداى قد ينتابهما القلق . حتى لا أطيل عليك تقابلنا صدفة بعد ذلك عدة مرات ، وإن كنت أشك الآن أن الصدفة لم تكن مسئولة ، وأن السيدة كانت ترقب خطواتى ، وتدبر الصدف .

أخيراً ذهبت إليها فى منزلها . كانت تقطن فى شقة واسعة أنيقة تطل على النيل ، دهشت لإتساعها إذ أنها كما قالت تقطن فيها بمفردها . رأيت مكتبتها ، والواقع أنها لم تبالغ حينما قررت أن لديها مكتبة ضخمة . كطفل صغير رحت أعبث فيها ، وأقلب الكتب . لاحظت أن معظمها مؤلفات عن السحر ، ووسائله ، وبعضها عن الكيمياء ، كما أن الكثير كان طبعات قديمة ، بل وفيها مخطوطات .

سمحت لى أن أستعير بعض الكتب . . بل إنها فى الواقع عرضت على هذا ، فإنتهزت الفرصة وأخذت كتابا عن وسائل تحضير الجان فإنه كما ترى موضوع شيق يستهوى الألباب خاصة بالنسبة لفتاة صغيرة . إلتهمت الكتاب إلتهاماً وكان من البدهى ألا أستطيع إستيعاب ما فيه ، وإضطررت أن أسألها أن تشرح لى ما غمض ، فكانت تجيب بسعة صدر .

لم يمض وقت طويل حتى إنقلبت موازين حياتى . إستحوذ السحر ، وسائر القوى الخفية ، أو ما يسمونه العلم القديم ، على كل تفكيرى وأحاسيسى . طالما تصورت نفسى وقد حظيت بقوة خارقة أستطيع بها أن أفعل ما أشاء ، بل أستطيع أن أخضع الناس لإرادتى ، وأغير مصائرهم . كان هذا التصور يدفعنى إلى المزيد من القراءة حتى أتى الوقت الذى لم أعد أكتفى فيه بالناحية النظرية ، وأردت الممارسة الفعلية .

سألت السيدة أكثر من مرة إن كانت تمارس السحر ، وكانت دائماً تتفادى الإجابة مما جعلنى أزداد تلهفاً . أخيراً جاء اليوم الذى أخبرتنى فيه إعتزامها السفر

فى غدة ، وأنها سوف تتغيب فى الخارج لبضعة أشهر للعلاج . لم أستطع صبرا ، وطالبتها أن تجرى معى تجربة عملية واحدة قبل سفرها . أظهرت تمنعا فى مبدأ الأمر ، ثم عادت ووافقت بعد أن ألحفت عليها ، بل وقررت أن الموعد مناسب لحسن الحظ . إستفهمت منها عن التجربة فأجابت بأنها ستؤدى معى تجربة بسيطة نظرا لأننى لازلت جاهلة فى السحر ، ولأنها تشعر أنها تحبنى كابنتها سوف تربط روحها بروحى ، وحينما تعود من الخارج سوف تعلمنى الوسائل العليا التى أستطيع بها أن أفعل ما أشاء .

لم أفهم تماما ما تعنى لكننى كنت متلهفة على التجربة ، وخشيت إن أنا ألححت فى الإستفسار أن ترفض إجراءها فوافقت . صحبتنى إلى حجرة لم أكن رأيتها من قبل ، وفتحت الباب بمفتاح كان معها . فجأة شعرت كأن تيارا باردا إلتف حولى . لم يكن تيارا هوائيا ، وإنما مجرد برودة قارصة إحتوتنى كأنما وضعت فجأة فى حمام من الثلج ، وامتلأ أنفى برائحة عطنة ذكرتنى برائحة القبور . لثوان إنتابنى الرعب وودت أن أفر ، أن أبتعد عن الحجرة ، وعن المنزل ، والمرأة .

ربما كنت سأفعل هذا لولا أننى شعرت بيدها تقبض على ذراعى ، وتقودنى إلى الداخل ، وتغلق الباب وراءنا . كان الظلام حالكا لم أتبين فيه شيئا ، فوقفت مرتبكة لا أستطيع أن أتحرك . إزداد هلعى حينما أحسست بأن المرأة تركت ذراعى ، وإختفت وسط الظلام . إشتدت البرودة حتى أن أسنانى أخذت تصطك وإزدادت الرائحة الكريهة حتى خيل إلى إننى دفنت حية فى قبر .

وقفت أرتعد فى الظلام . لم يكن هنالك صوت ، أى صوت ، حتى وقع خطوات السيدة لم اسمعه ، إن كانت قد تحركت . أردت ان اصرخ مستنجدة ، وانحبس الصوت فى حنجرتى . على الرغم من الرطوبة والبرد المحيطين بى ، شعرت بأن حلقى قد جف ، وتصبب عرق الرعب على جبينى . لعلى لم امكث سوى ثوان معدودات ، ومع هذا فإنه خيل إلى انها دهر كامل . ظننت اننى رأيت عينين

تلتمعان فى الظلام . عينى هرة ، لكن ربما كان هـــذا محض خيال .

فجأة إنقدت اربع شمعات فى اركان الحجرة الاربعة ، كما إشتعلت نار فى وسطها . لست ادرى كيف اصف هذا . لم ار عود ثقاب يشتعل ، ولا حتى سمعت صوتا لإشتعاله ، او لإشتعال ولاعة . كانت الحجرة فى ظلام دامس ، واضيئت الشموع كما إنقت النيران فى لحظة واحدة . هنـــا ندت منى صرخة مكتومة ، وتراجعت دون إرادة حتى إرتطمت بالباب ورائى . شعرت بيد السيدة توضع على ذراعى ، فالتفت وجلة وقد إتسعت حدقتاى ، كانت تبتسم لى مشجعة ، وهمست

— لا تخافى ، إنك طلبت ان ترى تجربة عملية واردت ان تتعلمى ، واول درس لك ان تتعلمى ضبط احاسيسك ، والسيطرة على مشاعرك .

تركت لى الوقت الكافى لكى اتمكن من استرداد رباطة جأشى ، واعتاد على ما حولى ، والواقع ان رؤيتها ، وسماع صوتها ، ضيعا الكثير من الرعب الذى إنتابنى قبلا . سألتها استأنس لسماع صوتى .

— كيف إنقدت الشموع ، والنيران معا وانت على ما يبـــدو لم تتحركى من جوارى ؟

إتسعت إبتسامتها

— هذه حيلة بسيطة سوف تتعلمينها ، وأعظم منها حينما اعود من رحلتى .

ادرت النظر إلى الحجرة اتفحص محتوياتها . كانت حجرة واسعة اقرب إلى الصالة . لم أر لها نافذة ، أو بابا آخر غير الذى دخلنا منه . أرضها بلاط كبير عليه رسومات غريبة لم أعرف بعضها ، لكننى تبينت البعض الآخر . كانت هناك دائرة هرمس السحرية بالبروج السبعة ، ومثلث سليمان السداسى ، وصورة لبعلزبوب ، وإسمودبوس ، وايزيس . أخريات لثعابين ، وكتابات ربما كانت هيروغليفية ، ورموز اخرى ، منها عنخ رمز الحياة ، والكا القرين ، وغيرها .

كانت جدران الحجرة حمراء قانية ، فى لون الدم ، ولم استطع ان اتبين جيدا

لون سقفها ، وإن كنت أعتقد بأنه كلون الجدران . كانت عارية من الأثاث ليس فيها سوى أربعة حوامل على هيئة الثعابين ، يحمل كل منها شمعة ، وفي وسط صدر الحجرة إرتفع تمثال تلتهب النار تحته في صاع كبير من الحديد .

إنتصب التمثال ضخما بالنسبة لحجم الحجرة ، مرعبا في صمته ، شيطانيا في نظرة الشر المرتسمة على عينيه . تحققت منه بمجرد أن وقعت عليـــه عيناى ، أطلقوا عليه أسماء متعددة فهوطورا لوسيفر ، وأخرى بان ، وثالثـــة بلعال ، هوزاكا ، وداجون ، وجيديه ، وبهموث ، وعزازيل، ومولوخ ،وعشرات غيرها . هو ملك الظلام ، جسد الإنسان ورأس التيس بقرنيه المرتفعين ، وأذنيه المدلاتين ، وحاجبيه المتقابلين ، وعينيه الشريرتين . كانت النيران المشتعلة تحته تلقى عليه ظلالا متحركة لتهب جمود التمثال نوعاً مرعبا من الحياة .

تركتنى السيدة دقائق قليلة أستوعب الحجرة ، وأشبع فضولى ، ثم قادتنى من ذراعى حتى وقفنا ، نحن الإثنان ، وسط دائرة هرمس السحرية على بعد لا يزيد على نصف متر من النيران . ركعت ولم تترك ذراعى فاضطررت إلى الركوع إلى جوارها . بدأت تتمتم بكلمات غريبة ، ثم مدت يدها لتضع بعض أنواع العطارة فى النيران .

إرتفع فى الحجرة دخان غريب متعـــدد الألوان ووصلت أنفى تلك الرائحة الكريهة التى شممتها لحظة أن فتح باب الحجرة لكن هذه كانت أقوى عشرات المرات . لم تتوقف السيدة لحظة عن التمتمة غير المفهومة ، لكنها أخذت طابع الترنيم ، وارتفع الصوت شيئاً فشيئا حتى أضحى نغما رتيبا . وفهمت . كانت تتعبد لملك الظلام . أردت أن أقوم فلم أستطع . أحسست بأن شيئا ما يقيـــد ركبتاى إلى الأرض .

تكاثف الدخان حتى ملأ جو الحجرة ، وداخلنى دوار خفيف كما بدأت عيناى تدمعان . شعرت بأننى أفقد وعيي ببطء ، وأفقد معه إحساسى بالمكان والزمان . حتى جسدى خيل إلى أنه يتحرر من جاذبية الأرض وأنه إبتدأ يطوف

مع الدخان المتكاثف . شيء غريب لاحظته رغم ما أنا فيه . بالرغم من كثافة الدخان فإنه لم يخف وجه التمثال. بقى هذا ظاهرا شريراً مهدداً .من مكان ماظهرت يدا السيدة تقبض إحداهما على ديك أسود اللون ، لا تشوبه شائبة ، ويلتمع فى الاخرى نصل حاد لسكين .

تعالى صراخ الديك يختلط مع أصوات الترنيم المستمر . رأيته يحاول الإفلات لكن السلاح الحاد مر على رقبته ليفصلها تماما عن الجسد . قفز الجسد بلا رأس يرقص رقصات الموت . رفرفت الأجنحة فى الهواء وتناثرت الدماء معها فى كل مكان أخيرا إنتهت الحركة وأختفى الجسد ، وسط سحب الدخان ، وإرتفع صوت الترنيم يصم أذنى .

من وسط الدخان إرتفعت السنة الدخان . لم تكن تلك النار المحصورة فى الوعاء ، وإنما كانت نيرانا مطلقة تتطاول السنتها فى كل مكان امامى ، وحولى . حاولت ان اصرخ، او افر ، إلا اننى لم استطع . خيل إلى ان سحب الدخان تدخل من انفى لتختلط بعقلى ، وتغم نظرى. لم اعد ارى سوى السنة النيران حولى وعلى ضوئها رأيت السيدة إلى جوارى تكاد النيران أن تلتهما وسط النيران ظل وجه الشيطان بارزا ، مسيطرا ، مهددا .

لم يتوقف الترنيم طوال هذا الوقت ، وأحسبنى سمعت إسمى يذكر ، وربما أيضا إسم والدتى إلا أننى لست واثقة . لعل السيدة كانت توجه سؤالا إن هذا الإتحاد الروحى تم برضائى ، ولعل أحنيت رأسى موافقة . الواقع أننى غير متأكدة من هذه الوقائع لأننى غبت بعدها عن وعي .

حينما أفقت كنت نائمة على فراشى فى حجرتى ، وولداى إلى جوارى ينظران إلى بقلق زائد . لست أدرى ماحدث ، ولا كيف وصلت إلى المنزل ، او دخلت حجرتى ، وإن كانت والدتى قد اخبرتى بأننى سرت كمن فى حلم ، وإتجهت من فورى إلى فراشى دون ان ارد على تساؤلاتها بكلمة ، وكأننى لم اسمعها .اخبرتنى اننى إستغرقت فى نوم عميق لم استيقظ منه إلا بعد ان دار عقرب الساعة دورة كاملة .

سألنى والداى أين كنت ، وماذا حدث ، فأخبرتهما أنى كنت فى زيارة لإحدى صديقاتى ، وأننى شعرت بوعكة وإعياء فإصطحبتنى الى هنا ، وأن حمى مفاجئة إنتابتنى فلم أستطع أن أجيب على والدتى . طمأنتهما على حالى حينما أرادا إستدعاء طبيب ، وأخبرتهما إننى فى تحسن مستمر ولا داعى للقلق .

فى اليوم التالى أبللت ، وزال كل أثر لضعفى السابق . فيه أيضا جاءت الهرة إلى منزلنا ، وإنقلبت حياتى رأسا على عقب . لم أدر كيف دخلت الشقة ،ولا كيف إتجهت لى كأنما تألفنى منذ مدة . ارادت والدتى ان تخرجها إلا أننى عارضت ، وإبتسم والدى راجيا الوالدة أن تسمح لى بإبقائها على أن أتعهدها بالنظافة ، ووافقت . إتجهت إليه القطة وكأنما قد فهمت دفاعه عنها ، وتمسحت فيه .

مضى يومان دون حادث يذكر . فى اليوم الثالث إتصل بى أحد المحامين تليفونيا ورجانى أن أذهب لمقابلته فى مكتبه . سألته عن السبب فأوضح أن السيدة توفيت تاركة وصية ، وأنه يعلم انها اوصت بممتلكاتها جميعا لى . صحبنى والدى ، وعند المحامى تيقنت مما قاله . كانت السيدة ، ثرية إلى حد مذهل ،وقد اوصت بجميع ممتلكاتها بما فيها الشقة لى .

تركت تدبير الامور بين يدى والدى ، والمحامى ، وإشترطت شرطا واحدا هو انهما لا يمسان الشقة ، التى كانت مملوكة للسيدة ، إلا بعد ان انقل الكتب الى حجرة اختصها لنفسى ، ولهما بعد ذلك ان يؤجراها مفروشة كما اقترحا .

اراد والدى أن يرسل معى من يساعدنى فى نقل الكتب الى الحجرة التى انتقيتها لكننى رفضت محتجة بأن هناك ناحية عاطفية أود ان أقوم بها بنفسى . ذهبت الى الشقة ولم أجد عناء فى العثور على مفتاح الحجرة وكأنما كنت انا الذى خبأته فى مكانه الامين . حينما ذهبت الى باب الحجرة لم أجده ، ووجدت انه قد اقيم حائط مكانه . تعجبت من الامر ، واتجهت الى المكتبة وانا افكر اين اضع كتب السحر ، ومخطوطاته ، ولم أجدها كذلك . كانت هنالك كتب كثيرة ، لكن

لا أثر لكتب السحر . حزنت لذلك اذ انني كنت أتلهف على التعمق فى القراءة ، والإطلاع ،ثم ما لبثت ان طرحت الأمر جانبا .

توالت الايام ، وازددت حبا للقطة وتفاهما معها . كانت بشكل ما تفهم كل رغباتى وأحاسيسى ، كما كانت تنقل الى رغباتها ، ومشاعرها . عزوت هذا فى مبدأ الأمر الى الألفة الغريبة التى تربط بين الإنسان والحيوان أحيانا ، ثم جاء الوقت الذى استبعدت فيه هذه الفكرة لتحل محلها أخرى أبعد تصديقا ، وأعمق أثراً .

كان لدينا خادم يبدو انه لسبب أو آخر لا يحب القطة . بينما أنا استذكر دروسى فى حجرتى شعرت فجأة بألم حاد فى جانبى الايمن كأن أحدا قد ركلنى. أطلقت صرخة مكتومة .

وفى اللحظة التالية سمعت زمجرة القطة فى المطبخ . وصراخ الخادم ، بالرغم مما أعانيه من ألم ، هرعت ، واسرع معى والداى . هنا رأينا منظرا مروعا . كانت القطة قد مزقت قدمى الخادم ، ويديه . كانت ماتزال تقفز محاولة ان تصل إلى وجهه أو رقبته ، وكان يدفعها عنه وهو يصرخ .

أسرع والدى ليقبض عليها ويبعدها عن الخادم المسكين إلا أنها أنشبت أنيابها فى يديه مما إضطره أن يلقيها بعيدا . عاودت هجومها على الخادم ولم ينقذه سوى تدخلى . أخذتها بين يدى فاستكانت ، وحملتها إلى حجرتى تاركة والدى ، والخادم لرعاية والدتى . إندهشت إذ شعرت بالآلم فى أجزاء متعددة من جسمى وكأننى خضت معركة .

بعد دقائق إستدعانى والدى ، وحينما ذهبت رأيت أن يده ، قد ضمدت . كان يجلس مع والدتى صامتين . أشار إلى مقعد فجلست . قال إنه يخشى أن القطة قد مسها سعار ، وانه يجب التخلص منها . رجوته باكية أن يبقى عليها واعده أنها لن تعود إلى ذلك ، ورفض بإصرار . قطعت والدتى الحديث فجأة تسأل .

— ما الذى أصاب وجهك ؟

لم أدر ماذا تعنى . كنت أشعر بألم فى صدغى الأيمن لكننى لم أنتبه إلى أن هناك أى أثر ظاهر . سألت

— ماذا به ؟

— إن على صدغك الأيمن أثر كدمة

— ربما أكون قد صدمت فى شيء وأنا أجرى إلى المطبخ .

لم يبد عليها أنها إقتنعت ، لكنها لم تلحف فى السؤال . وعاد والدى يؤكد ضرورة التخلص من الهرة . توسلت إليه قائلة إن الخادم هو الذى بدأ بإيذائها إذ ركلها فى جنبها ، وسألنى والدى كيف عرفت هذا . إحترت فى الإجابة ومع ذلك كنت واثقة من صدق قولى ، وإن لم أدر كيف عرفت . حينما لم أجب رجع والدى إلى إصراره . فجأة وجدت نفسى أخاطبه بلهجة لم أخاطبه بها مطلقا . لم أعد تلك الفتاة الوديعة المطيعـــة التى ألفاها بل ، والتى ألفتها أنا فى نفسى ، وإنما أصبحت فتاة واثقة من نفسها أقرب ما تكون لهجتها إلى التهديد .

— إن القطة لن تبرح المنزل ، وإلا ذهبت معها .

حتى الصوت لم يكن صوتى . فغرت والدتى فيها ، ونظر إلى والدى مشدوها . فى ثانية ضاعت منهما السبعة عشر عاما التى إعتنيا فيها بربايتى ، وقفزت إلى الوجود فتاة غريبة عنهما تماما . تمالك والدى نفسه بسرعة وقال بتؤده متعمدة :

— تذكرى أنك قاصرة تحت وصايتى ، ولامال لك إلا فى حـــدود ما أسمح به .

با للهجة نفسها جاء ردى مقتضيا .

— لم أفكر فى المال

بدت الحيرة على وجهى

— كل هذا من أجل قطة ؟ !

— أجل

أنهيت المناقشة ، وتركتهما لحيرتهما . كان جزء منى يصرخ فى أعماقى أن أعود لأركع تحت أقدامهما وأعتذر ، وجزء آخر يدفعنى إلى حجرتى فى أنفه ، وكبرياء ، وإصرار .

فى اليوم التالى كنت فى المدرسة حينما أحسست أننى أود أن أفر من شيء يطاردنى ثم صرخت إثر شعورى بضربة هوت على ظهرى . أعادونى إلى المنزل ، واستدعى الطبيب الذى قرر غاضبا أن هنالك من ضربنى بعصا غليظة على ظهرى ، وأنه لولا لطف الله لقضيت سائر عمرى كسيحة . حينما خرج سألت والدى

— لماذا ؟ . . . لماذا ضربت القطة ؟

صعق من السؤال . تراجع إلى الخلف كمن أصيب بلطمة ، ومضى ينظر إلى بذهول .

— كيف ؟ . . كيف عرفت ؟

شيئاً فشيئاً كمن يفيق من حلم بدأ يدرك الحقيقة ، أو جزءاً منها . حاول أن يستجوبنى ولم أشف له غليلا إذ أننى ، حتى تلك اللحظة ،لم أكن قد علمت الحقيقة كاملة . كل ما كنت أعرفه أن هناك ارتباطا غريبا بينى وبين القطة ، ما يصيبها يصيبنى ، وما يصيبنى يصيبها . هناك رباط يضمنا نحن الثلاثة ، السيدة ، والقطة ، وأنا .

ماتت السيدة ، وبقيت القطة وأنا . أم هل ماتت السيدة ؟؟

دفعنى هذا السؤال إلى التعمق فى التفكير فيه . مضت ليالى كثيرة وأنا أفكر لكن كان هنالك دائما شيء يطمس عقلى فلا أصل إلى نتيجة حاسمة . فى هذه الأثناء إجتزت إمتحان الثانوية بتفوق ، ورفضت أن ألتحق بالجامعة رغما عن إلحاح والداى . كنت أرى أن العلوم التى تدرس ما هى إلا عبث أطفال لا يجوز لى أن أضيع فيها وقتى . ماقيمة هذه العلوم إذا ما قورنت بعلوم الأقدمين ، والدين القديم ؟

تكررت حوادث القطة بعد هذا حتى أصبحت رعبا يسيطر على المنزل . لن أذكر لك منها سوى حادثة واحدة لها دلالتها . بعد بضعة أيام من واقعة الضرب ، كنت مستلقية على فراشى أقرأ ، وإلى جانبى رقدت القطة . فجأة هبت واقفة ، تقوس ظهرها ، ووقف شعرها وصدر منها فحيح غضب .

قفزت القطة من الفراش وتسللت خارجة من الحجرة . نحيت الكتاب جانبا وتبعتها . رأيتها تدخل حجرة الإستقبال فتلصصت وراءها وشاهدتها تتجه رأسا إلى رجل يبدو أنه حضر لزيارة والدى . تمسحت فيه قليلا فوضع يده يربت عليها . فجأة إشتعلت النار فى يده ، ووقف يصرخ . أسرع إليه والدى بوسادة لفها حول اليد المشتعلة فإنطفأت النار ؟ وإن استمر الرجل يصرخ ألما . تركه والدى ليحضر بعض الدهون ، وبمجرد أن رفع الوسادة عادت النار إلى الاشتعال وعاد والدى بالوسادة .

صرخ الرجل قائلا إن هذا هو السحر الأكبر وأنه لن يستطيع أن يعمل شيئا. إستمر واضعا الوسادة على يده ، وجرى صارخا من المنزل وهو يتأوه . بتؤده تحركت القطة ، وبهدوء ، وقفت عند الباب تنظر إلينا . حتى أنا كنت أنظر إليها برعب .

إنطوى والداى بعد هذا على نفسيهما . إبتعدا عن القطة وعنى . عاشا فى دارهما يسيطر عليهما الخوف ، وربما أيضا الشفقة على ابنتهما التى فقداها حيه بينهما أما أنا فلم يفارقنى الرعب أبدا . لقد طلبت إجراء تجربة فى السحر فبقيت دائما تصاحبنى لا أستطيع التخلص منها . لم أكن أدرى ماذا يحدث داخلى ، ولا إلى أين يؤدى كل هذا ؟ ومتى ينتهى ، وكيف !

مرت سنوات . علم الله كم قاسيت فيها . كنت أشعر أن روحا أخرى تزاحم روحى فى جسدى تدفعه إلى جسد القطة . ببطء ، وإنما بثقة ، كان هذا يحدث . فكرت أكثر من مرة أن أنتحر ، لكننى جبنت، أو لعل الجزء الآخر من الروح

التى تزاحمنى هى التى دفعتنى إلى أن أعيش حياتى مجزأة ، بين جسدى وروحى ، وجسد القطة . وإنتهى بى اليأس إلى الإستسلام .

ثم ظهرت أنت . حينما مست يدك يدى أحسست للمرة الأولى أنى أكاد أن أنال حريتى كانت روحى هى التى أحبتك ، أو بكل مابقى فيها . لست أدرى . شعرت أن تيارا سرى منك إلى ، تيار كله خير ، لاشر فيه . يبدو أن الحب ألف بين روحينا ، فأخذت منك ، وأعطيتك . كانت الروحان أقوى حتى من السحر الأكبر ، والخير أقوى من الشر . وهبتك كل مافقدته من حب .

وهبتك حب الأم ، والأب ، والزوج .

إذا كنت قد عرفت فى حياتى معنى السعادة الحقة ففى تلك الأوقات التى قضيتها معك فى النادى . واحس والداى بالتغيير الذى طرأ . راودنى الأمل ان أتخلص من الشر الذى يلاحقنى ، وراودهما الأمل . لاشك ان القطة احست بهذا ايضا إذ لاحظت انها كفت عن مزاحمتى وهدأت نسبيا عن ذى قبل .

أنت تعرف الحوادث بعد هذا فلن اعيدها . لكنك لاتعلم كم احببتك ، وكم اعطيتنى انت من سعادة . حينما طلبت منى ان تزورنا مع والدتك فى المنزل طلبت منك مهلة إلى الغد لم يكن هذا لأسأل والداى فى الواقع . كنت أطير فرحا ، لكننى اردت ان اصفو إلى نفسى لأزن الأمور ، واقدر إن كان هناك ضرر يمكن ان يلحقك .

قضيت الليلة اقلب الأفكار . إن السيدة ، القطة ، فى مركز قوى ، لكننى انا ايضا فى مركز قوى ، إن مايصيبها بتهديدى لها ان انتحر يمكننى ان امنعها من إيذائك ، وربما امكننا ان نعيش فى سلام نسبى . وجال فى عقلى خاطران . احدهما اننى على قدر ما اود ان امنحك اطفالا فإننى لم اجرؤ خشية ان تحتل القطة جسد الطفل وهو لم يزل فى جسدي . لكن هذا يمكن تأجيله لفترة او اخرى حتى ينجلى لى الموقف تماما ، وربما حينئذ استطيع ان اشاركك الحياة فى جسد طفلنا .

كان الخاطر الثانى أبشع . ان السيدة أضحت روحا بلا جسد ، أو هى روح موزعة على جسدين ، القطة وأنا . هى لاشك تبغى أن تحتل كامل جسدى ، ترى هل فعلت ذلك قبلا ؟ كم جسدا إحتلت قبل الآن ؟ كم فتاة ذهبت ضحيت لها تستعير منهاجـدها ، وتطرد روحها ؟ نظريا يمـكن أن يستمر هذا قرونا . وربما استمر عملا كذلك . لهذا أوصت لى بكل مالها ، حتى يمـكنها أن تتمتع به بعد أن يـكمل لها الإستيلاء على جسدى . وجاء السؤال هل ستقبل أن تترك الحالة على ماهى عليه حتى يتقدم بى العمر ، وربما أموت ميتة طبيعية ؟ إن روحها الآن محصورة بينى وبين القطة ، ولن تستطيـع ان تجد فريسة أخرى إلا بإجراءات سحرية جديدة ومعنى هذا أنها فهمت يجب أن تحتل جسدى كاملا ، إذا كانت تريد استمرار الحياة ؟؟

كاد هذا التفـكير أن يثبط عزيمتى فى الزواج منك، لـكن الأمل القوى الذى منحنى حبك إياه ، هون من الأمر ، ودفعنى أن أرجو له حلا . فى تلك الليلة واجهت القطة متحدية لأول مرة . أنذرتها بأن أى مساس بك سيدفعنى إلى إيذاء نفسى ، وبالتالى إيذائها . وقفت تنظر إلى ، كان من الجلى أنها فهمت ، ومن الجلى لها أيضا أنى لأول مرة أعنى ماأقول .

رحب والداى بالنبأ ، ولاشك أنهما فرحا إذ سوف يتخلصان منى ، ومن القطة . لـكننى أعتقد أن فرحهما كان من أجلى أيضا إذ راودهما الأمل أن أتخلص من اللعنة التى أنصبت على . أراد والدى ان يصارحك بالموقف قائلا انه ليس من العدل أن تتزوجنى دون بينه من أمرى ، وارتعبت أن ترفض الزواج حينما تعلم . نهيته أن يفعل ، بل وهددته ، وصمت على مضض .

تزوجنا ، وعشت معك فى نعيم لم أحلم به ، ايام فى الجنة . انـكمشت القطة فلم تعد تحاول ان تـكمل الإستيلاء على جسدى . بدا لى ان روحى تزداد قوة ، وان روح السيدة تتضائل منسحبة إلى القطة ثانية ، ومادريت انها تنتظر . جئتنى يوما تشـكو من ذلك الموظف الذى وقف فى سبيلك ، وقفزت القطة كأنما هى تمد يد المعونة .

لم أعلم كم أخطأت حتى رأيتك تعود حزينا حينما علمت بهجوم القطة على الموظف. ان قلبك ملىء بالخير ، ولايبغى شرا لأحد ، حتى وإن كان في ذلك منفعة لك .

لعل شكوكك الحقيقية بدأت منذ ذلك الوقت ، وبدأت تربط الأشياء ببعضها . أردت أن تزور والداى ، ورفضت خشية أن يبوحا لك بالسر . ومدت القطة يد المعونة للمرة الثانية . حينما قابلت والداى قطعت الشك باليقين وعلمت أنا أننى كنت أعيش فى حلم . هنا صممت على أن أنهى حياتى وحياة تلك التى تستعير الأجساد .

وضعت خطتى بحيث تساير ظاهرها رغبات السيدة . ربما كان وراؤها حكمة اكتسبتها خلال قرون من حيوات مستعارة ، وربما كان وراؤها خبث شياطين الأرض ، لكن ورائى كان حبك ، والرغبة في إبعاد الأذى عنك ، ولم أشك لحظة أننى سوف أتغلب عليها . لم أكن فى هذه المرة أدافع عن نفسى فحسب ، وإنما كنت أدافع عنك ، وعن سعادتك .

دبرت الأمر بحيث ننفصل ، وانفصلنا . أرادت أن تقتلك لتتخلص منك نهائيا ، وأنذرتها ألا تؤذيك وإنما تحطم أعصابك فقط حتى تعود ، كان هذا فى رأيها يطابق حبي لك ؛ فلم تشك فى الأمر . لم تتصور أنى أدفعك دفعا إلى قتلها حفاظا على سعادتنا ، أو هكذا ظننت . كانت هى اليد وكنت أنت الخنجر الذى سوف يقتلها ويقتلنى . انى أعلم أنك رحيم حتى مع من آذاك ، واعلم أن ميتة القطة سوف تكون رحيمة ، وكذلك ميتتى . لاتظن أنك قتلتنى فلا يمكن يقال عنك ذلك أكثر مما يقال إن خنجرا قتل ، كنت مجرد أداة لاحول لك ، تماما مثل الخنجر .

* * *

إلى هنا إنتهى الخطاب لكن هنالك شىء أخير لم أظن فى حينه أن له علاقة بموضوع الشاب. فى صباح التالى قرأت فى صفحة الحوادث فى إحدى الجرائد عن حريق شب فى إحدى العمارات على النيل ، وأن النار التهمت شقة واحدة ، فأتت على كل مافيها قبل أن يستطيع رجال المطافىء أن يتغلبوا عليها .

علمت بعد ذلك أن هذه هى الشقة التى كانت ملكا للسيدة وأوصت بها لزوجة صديقى الجديد .

* * *



عنـــدما تتجسد الكلـــمة

لأخبرنك .. ولن تصدق . لن تصدق حتى تكون أنت نفسك الهدف . حينئذ لن يقف بك الأمر عند حد التصديق ، سوف تنهار أعصابك . حينما تجد نفسك هدفا لقوى الشر ، حينما يحيط بك الشيطان من كل جانب . عندئذ سوف تصدق . حينما ترى الشر مجردا كما هو ، ليس فى حادثة ، تقع أو حتى عدة حوادث ، وإنما تجابهه ، كأنما شخصا يتمثل . عندئذ سوف تصدق ، وسوف تنهار . أتظن أننى أبالغ ؟! إذا فاستمع .. ولأخبرنك .

لن أنمق لك الكلمات ، فأنا لست بقصصى .. أنت تعرفنى .. إننى مهندس ، رجل عمل بكل ما تحمله الكلمة من معنى . كنت مثلك ، لا أصدق ما لا أستطيع

العقل أن يقبله . لا أصدق إلا ما أرى ، وما ألمس ، وما أعرف وأفهم ، أجل ... كنت كذلك . أما الآن فلم أعد أدرى !! لم أعد أدرى إذا كان ما أراه هو حقيقة ما أراه ، وما ألمسه هو حقيقة ما ألمسه ، وما أعلمه وأفهمه هو فى الحقيقة علم ،وفهم. إختلطت على الحقائق والأوهام ، حتى لأكاد أن أصاب بالخيال ، لما أدرى أين تقف الحقيقة ، ويبدأ الوهم .

إستمع ... أنت لا تعرف صديق رأفت ، وأن كنت لا أشك أنك سمعت عنه . إنه كاتب قصصى تخصص فى القصص البوليسية ، ونال شهرة لا بأس بها . إن قصصه جميعها إستوحاها من الواقع . إعتاد أن يذهب إلى أقسام الشرطة ، وأن يحضر محاكم الجنايات ، يستمع إلى المرافعات ، يدون الملاحظات ويطلع على السجلات ، ثم يعود إلى داره ويمزج بأسلوب بارع ، الخيال بالواقع . هذا هو سر نجاحه. إذا روى قصة فثق أن لها أصلا فى سجلات الشرطة ، أو المحاكم ، وإذا وصف شخصا فتأكد من أنه رآه ، وغالبا ما يكون قد إستمع إليه ، لهذا فأنت تشعر وأنت تقرأ له أن فى قصته حبكة طبيعية دون إفتعال ، وأن الأشخاص فيها أحياء يتحركون حتى كأنك تستمع إلى نبضات قلوبهم .

عرفت رأفت منذ عشرة سنوات . كنا شابين نتنافس على فتاة واحدة ، وفزت بها دونه ، وتزوجتها . لم يغضب ، وتلقى الصدمة بروح رياضية . منذ ذلك التاريخ توطدت صداقتنا .

منذ حوالى شهر . لم أكد أصل إلى مكتبى صباحا حتى وجدته ينتظرنى . كان هذا فى حد ذاته غريبا ، ذلك أنى طائر مبكر أحب أن أكون من أوائل اللذين يصلون ، أما هو فبطبيعة عمله ككاتب يحب أن يعمل فى سكون الليل ، وبالتالى يستيقظ متأخرا . ولا أذكر خلال سنوات معرفتى به أنه إستيقظ مرة واحدة مبكرا إلا لسبب قوى . إستقبلته هاشا مرحبا

- أهلا .. إنك طائر مبكر .

راح يعبث فى أصابعه بحركة عصبية ، وإبتلع ريقه قبل أن يتكلم .

— إسمع .. هل تستطيع أن تترك مكتبك الآن وتصل معى إلى منزلى ؟

ترددت ، ونظرت إليه برهات . إذا كان قد بدا لى عصبيا لحظة أن رأيته فانى لاحظت الآن أن هالة سوداء قد أحاطت بعينيه شأن من لم يذق النوم فى ليلته . تساءلت

— لماذا ؟ إن لدى أعمالا كثيرة أود إنجازها .

— إننى أود أن أريك شيئا .

كانت إجابة غريبة لا تعنى شيئاً بالنسبة لى ، ومع هذا فإننى تذرعت بالصبر وأنا أسأله ثانية .

— ماهو ؟

— إننى لا أريد أن أتكلم حتى ترى بعينيك ، وتحكم .

بدأت أتضرر من هذا الغموض

— اسمع يا رأفت لقد قلت لك أن لدى أعمالا كثيرة اليوم ، وليس هذا وقت المزاح .

كان رده عصبيا راجيا .

— انى لا أمزح . أقسم لك على هذا .

— إذا خبرنى ماهو ذلك الشيء الذى تريدنى أن أراه ؟

— لقد قلت أننى لا أريد أن أتكلم حتى ترى بعينيك وتحكم .

— إذا ألا تستطيع أن تأتى بما تريد إلى هنا ؟

— أجل انى أستطيع لكننى افضل أن تأتى معى فإننى أخاف أن أدخل منزلى ، وأخاف أن أحمل ماأريدك أن تراه .

فرغ صبرى وكانت لهجتى جافة

- ماهذه الترهات ؟ انني لاأحب الأحاجي . إنك رجل مكتمل الرجولة ، وتقول إنك تخاف تدخل بيتك في أوضح النهار ؟ ! ثم تخاف أن تحمل شيئا تريدني أن أراه ؟ ! أثعبان هو ؟

بلغ صوته حد التوسل والتضرع وقال وهو يرتعد .

- أرجوك أن تأتي .. أستحلفك بصداقتنا .. أرجوك .

لان قلبي حينما رأيت مدى ماوصل إليه من الرعب ، وطمأنته أنني سوف أصحبه بعد دقائق. قمت ببعض الاعمال السريعة ، وأخبرتهم في المكتب أنني سوف أتغيب ساعة ، أو اثنتين ، ثم صحبته إلى سيارتي . كان غير متزوج ويقطن بمفرده في شقة مكونة من حجرتين وصالة ، ومنافعهما ، تقع في أعلى العمائر في طريق شارع الاهرام . حاولت طوال الطريق أن استدرجه لاعرف منه كنة ذلك الشيء الذي يريدني ان اراه لكنه تدرع بالصمت ، واستمر يعبث في أصابعه وهو يلتفت في الوجوه التي نمر بها كأنه يتوقع ان يهاجمه عدو .

وصلنا أخيرا إلى مسكنه ، ولاحظت أن إضطرابه قد إزداد ، وأن يده ترتعش حتى وضع المفتاح في القفل بصعوبة . ما أن دخلنا ، وأغلق الباب حتى إتجه فوراً إلى المكتب وتبعته .. هي غرفة رحبه تطل على الأهرامات ، والمزارع ، جدرانها الخارجية جميعا بالزجاج حتى أضحى المنظر رحبا . كانت غير منتظمة ، شأنها شأن حجرات اى رجل أعزب ، لايزيد مافيها على مكتب صغير . ومقعدين ، ومنضدة ، ومكتبة كبيرة تحتوى كتبا متزاحمة .

وقفت أتأمل المناظر الممتدة ، وظل صديقي ساكنا فترة . سألته عما يريدني أن أراه ، فأشار إلى المكتب حيث تناثرت الأوراق وقال .

- هذا الكراس .. هل لك أن تأخذه وتقرأ ؟

تملكني الغضب .

- هل أتيت بي إلى هنا وجعلتني أترك عملي لمجرد قراءة صفحة من إحدى قصصك السخيفة ؟

تحمل الإهانة بإستكانة غريبة وسألني في تضرع .

- أرجوك أن تقرأ

حملني ما رأيت من مذلته على أن أتناول المسودة . كانت مكتوبة بالحبر الجاف في كراسة سميكة وسألته في تعجب

- هل تريدني أن أقرأ كل هذا ؟

- كلا .. إفتح كيفما إتفق

إزداد تعجبي ، لكنني أطعت . تناولت الكراس ، وجلست على مقعد أمام المنضدة ، ثم فتحت صفحة وبدأت أقرأ : كانت وصفا رائعا لوجه رجل شرير قاتل قال عنه إن من العسير على المرء أن يقدر عمر الرجل ، ربما في الأربعين ، لكنه أيضا من الجائز أن يكون قد بلغ الستين . لم يدع صديقي بعد هـــذا خلجة لم يذكرها . الوجه الأسمر النحيل الطويل ، الفكان القويان ، والوجنتان بارزتا العظام ، الخدان المنصفقان ، الفم الواسع ، الشفتان الرقيقتان ، الأنف المعوج وبه فطس خفيف ، الحاجبان الكثان ، والجبهة الضيقة ، والشعر الخشن ، والأذنان الكبيران . حتى ثنايا الوجه ، وصفها ، ولم ينس آثار الجرح المستطيل الذى يصل من الوجنة اليسرى إلى ما تحت الفم . لكن لعل أقوى ما وصفه هما العينان . قال إنهما غائرتان ، فيها ضيق ملحوظ إذ يطغى إشعاع الشر المنبثق على ضيقهما . بدت العين اليسرى أكبر من اليمنى قليلا ، ولعل ذلك راجع إلى آثار الجرح ، وصف سوادهما ، وحمرة بياضهما ، والنظرة الثاقبة التى كأنما تأتى من أغوار سحيقة ، نظرة تلتمع كأنما هما عينا حيوان مفترس ، ومع ذلك ففيهما شبه غريب بنظرة الأسماك الباردة . فيها شرور النفس الشريرة ، وبرودة الموت .

إنى أنذرتك أنى لست بكاتب فلن أستطيع أن أجارى رأفت فى وصفه . كان رائعا . كل سطر تقرأه يتمثل لك جزء من الوجه يكتمل ، فكأنك تراه ليس فى قسماته وسماته فحسب وإنما خلجاته ، والأحاسيس المكبوتة فيه ، والمشاعر التى تنطبع عندك حين رؤيته .

أخذ وصف الوجه صفحة كاملة من أول سطر فيها حتى نهايتها تماما بالرغم من أن الخط صغير منمق ومع هذا فإنى قرأته دون أن أشعر بأى ملل أو إطالة . حينما إنتهيت من القراءة أقفلت الكراس ، ووضعته على المنضدة أمامى ونظرت إلى صديقى متسائلا .

— ألهذا أتيت بى ؟ إن وصفك رائع لكننى كنت أستطيع أن أقرأه فى أى وقت آخر .

بان القلق على وجهه ، وسألنى بلهفة وكأنما هو يرجو إجابة تقنعه عن شيء فى نفسه

— ألم تلحظ شيئا ؟

— قلت لك إن الوصف رائع

هز رأسه نفيا وجلس على المقعد الثانى أمامى . وضع رأسه بين يديه ، وسمعته يتمتم وهو ينشج

— يا إلهى .. هل جننت ؟!

أهمنى ما هو فيه من حالة نفسية وسألته برفق

— لماذا لا تروى لى ببساطة مايضايقك ربما أستطيع المساعدة ؟

لم يرفع رأسه وهزها نفيا

— كلا .. لن يساعدنى سوى الله .. لا شك أننى سأفقد عقلى .

حاولت أن أسرى عنه فقلت مازحا

— إذا شئت ملاحظة أخرى على كتابتك فإنه يبدو أنك كنت تكتب بقلم كاد أن يفرغ مداده . إن الكتابة تخف فى بعض الكلمات حتى لا تكاد أن تقرأ ثم تعود كأثقل ما يكون .

رفع رأسه بغتة وقد عاد إليه الأمل وعادت إليه لهفة السؤال

— هل لاحظت ذلك ؟

أجبتـــه بتعجب وأنا لا أتصور أن مثل هذه الملاحظة السخيفة لها أية أهمية

ـ أجل .. لكن هل لهذا أهمية ؟

ـ أجل .. أجل .. كل الأهمية .. هلا فتحت الكراس ثانية ؟!

سايرته إذ رأيت مدى لهفته . تناولت الكراس وسألت

ـ هل تريدنى أن أبحث عن الصفحة نفسها التى كنت أقرأها ؟

ـ لايهم افتح كما فعلت فى المرة السابقة ، إفتح كيفما اتفق .

فعلت ذلك ، وكانت دهشتى حقيقية حينما وقعت عينـاى على السطر الاول وتبينت أن الصفحة كانت هى نفسها التى قرأتها قبلا . تمتمت بصوت خفيض وأنا أنظر إليه

ـ هذه مصادفة غريبة .. إنها الصفحة نفسها

ـ هلا نظرت إلى الصفحة .. ! انظر إليها ككل ، ولاتقرأ ..

حولت نظرى حائما ، وكدت أصعق . فجأة برزوجة من ثنايا السطور مصورا تصويرا كاملا كما قرأت وصفه ، وكما إنطبع فى مخيلتى . كان مرسوما بوضوح شديد يملأ الصفحة كلها ، لم يقف الأمر عند هذا . إننى أقسم أن العينين كانتا تلمعان ببريق قوى كأنما الحياة تدب فيهما . لبثت برهات أنظر وقد إجتذبتنى العينان ، لم أستطع أن أحيد بنظرى عنهما ، وكلما أمعنت كلما إشتد بريقهما .

من غور سحيق أتانى صوت رأفت متهدجا منفعلا

ـ ماذا ؟ .. ماذا لاحظت ؟ .. لماذا لاتتكلم ؟

رد صوته إنتباهى ، فكأنما أيقظنى من سبات عميق . رفعت عينى عن الصفحه وقلت بصوت لا أحسبنى أعرفه ، صوت لو سمعته لانكر أنه صوتى .

ـ كيف فعلت هذا ؟ .. لم أكن اعرف أنك رسام .

ـ فعلت ماذا ؟ .. ماذا ترى ؟

ـ ذلك الوجه . إنه شيطانى يبرز من الصفحة .

تنهد بارتياح ، ولأول مرة منذ أن تقابلنا صباح اليوم كان صوته هادئا .

— الحمد لله .. إذاً انا لم أفقد عقلى .. إذاً كل ما حدث صحيح .

لم أعلم عما يتكلم وأعدت سؤالى .

— كيف فعلت هذا ؟ كيف رسمت الوجه وأنت تكتب ؟

— أنا أرسم شيئا ، وإنما كتبت الوصف كما أكتب أى شىء بلاتوقف ، ولاتفكير فى الرسم كتبت الصفحة جميعها فى أقل من عشرة دقائق .

— مستحيل .. !

— أنظر إلى الكتابة التى قبلها والتى بعدها . ستجد أنه القلم نفسه ، وأن الكتابة هى نفسها .

إنك قلت إن المداد بدأ ينفذ من القلم أبدا .. أنظر بنفسك وأحكم . ! .. إنك تعلم أننى لاأعرف شيئا عن الرسم فهل أستطيع أن أرسم شيئا كهذا فى دقائق وبهذه الطريقة ؟ إن الأمر يحتاج إلى أمهر الرسامين حتى تخرج صورة بهذه الدقة ، وأعتقد أنه يلزمه أياما لكى يصورها من مجرد حبر جاف يخف حينا ، ويتزايد مداده حينا آخر .

كان كلامه كله صحيحا . إن مثل هذا الرسم يحتاج من رسام متمكن أياما ، وربما شهورا ، لكى يخرج بهذا الإتقان . وصديقى لايعرف شيئا عن الرسم .

— لكن هـــذا مستحيل .. لايمكن أن تخرج مثل هذه الصورة بمجرد المصادفة .. لابل مصادفتان . فرسم الوجه بمفرده مصادفة .. وإنطباق السمات والأوصاف على الكلمات مصادفة ثانية .. كلا إن هذا مستحيل .

— بل ثلاث . إنك فتحت الكراس عشوائيا مرتين وفى كل منهما خرجت الصفحة نفسها . لوفعلت ذلك عشرين مرة فسوف تكون النتيجة واحدة .

— إن هذه أستطيع أن أعللها فربما تكون قد وضعت شيئا فى الكراس ، مما جعل هـــذه الصفحة تنتفخ عن غيرها ، وهى ذلك تنفتح تلقائيا فى كل مرة . إن هذا يحدث كثيرا .

— لم أفعل شيئا من هذا .. أتريد تعليلا آخر ؟. إن صاحب الوجه يريد أن يتنفس !!

ضحكت .. إلى هنا ولم أكن مستعدا لتقبل الخيال .

— ألا تراك تبالغ ؟ !ألا ترى أن خيالك القصصى قد تملك منك ؟ !

— والصورة أهى مبالغة أيضا ؟ والعينان البراقتان ؟ أهما مبالغة ؟

إضطررت أن أعترف :

— لاشك أن هذه مصادفة غريبة لايمكننى تعليلها ، لكننى لن أصل إلى حد أن أضع الفروض لابعث فيها الحياة ،

— كيف أفهمك ؟. ومع هذا إنتظر .

كانت نوافذ الحجرة مغلقة فلم بفتحها حينما دخلنا إذ لم يكن فى نيق أن أمكث لاكثر من دقائق . قام صديقى من مكانه إثر كلماته ، واتجه إلى إحدى النوافذوفتحها ثم عاد إلى مكانه . كان الوقت صيفا وكانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحا ومع هذا ، ربما لاننا فى الطابق السادس ، ولان العمارة فى منطقة خلوية دخلت نسمة هواء ، تلاعبت بصفحات الكراس تقلبها ثم هدأت . دون أن ينظر إلى الصفحة التى إستقر الكراس عندها مفتوحا قال .

— أنظر .

نظرت وأنا أتهيب النتيجة المتوقعة ،، أجل أطل الوجه الوحشى . وجاءنى صوت صديقى .

— مصادفة أخرى .. لقد هدأت نسمة الهواء . لعلها أيضا مصادفة .

لم أتمالك نفسى أن قلت .

— إن هذا عمل شيطانى .

للمرة الثانية تنهد بارتياح .

— أجل إنه عمل شيطانى .. لكن هذا ليس كل شىء .. انتظر حتى أروى لك ماحدث وستعلم أى مدى هو عمل شيطانى ،

ابتدأ رأفت بعد ذلك يروى لى قصة هى أقرب إلى الخيال من الواقع ، وما كان يمكن أن أصدقها لولم أر مارأيت ، وحتى مع مشاهدته بعينى لا أزال أتردد فى تصديق أن شيئا شيطانيا مثل هذا يمكن أن يحدث حقيقة .

قال صاحبى .

ـ ربما يكون من الأوفق أبدأ أن منذ رأيت الرجل صاحب الوجه أول مرة .أنت تعرف أنى أستوحى قصصى من واقع الحياة ، ولهذا فإننى دائما أقرأ كل مايرد عن الجرائم فى الجرائد والمجلات ، ثم أتابع الحوادث شخصيا بأن أنتقل إلى أقسام الشرطة ، والمحاكم . لابد أنك قرأت أو سمعت عن صاحب هذا الوجه ، أو كما أطلقت عليه الجرائد القاتل الضاحك .

هزرت رأسى نفيا فإننى لاأهتم بقراءة صفحة الجرائم فى أية جريدة ، أو مجلة إذ اعتبر أن هذا مضيعة للوقت لاداعى لها . حينما رأى صاحبى جهلى إستمر فى حديثه .

ــ لابأس . هو رجل كان يؤجر للقتل . لكنه لم يكن قاتلا عاديا ، وإنما كان القتل هوايته يقتل لمجرد الشهوة ، والرغبه دون أى إعتبار لضحيته ، رجلا ، أو امرأة ، أو طفلا . إشتهر عنه أنه كان يتلذذ بالقتل حتى أنه كان يطلق ضحكات شيطانية وهو يزهق روح ضحيته . إن سجله حافل بالجرائم ، لقد تتبعته ، وعرفت تاريخ حياته ، بل لعلى أستطيع أن أقول إنى عرفت دخائله ونفسيته . أتدرى متى بدأ تاريخه فى القاتل ، بدأ فى العاشرة حينما قتل أباه لأنه رآه يضرب أمه . ربما يخطر فى ذهنك أن هنا شعورا طبيعيا على الأقل أبدا ..! بعد خروجه من الإصلاحية بأقل من شهر قتل أمه لرفضها إمداده بالنقود .

كان يرتكب جرائمه ، ويعرف الجميع أنه الفاعل لكن أحدا لم يجرؤ على التعرف عليه ، أو الشهادة ضده لا .. لقد جرؤ أحد المخبرين أن يبلغ عن حادث قتل رآه فيه بعينيه . وقتل المخبر المسكين ، وتقدم خمسه شهود يقسمون أن الضاحك كان مسافرا فى ذلك الوقت . لوعددت لك رقم ضحاياه على مدى عشرين سنة ، أو تزيد منذ خروجه من الإصلاحية آخر مرة ، وشنقه وهو فى حدود الأربعين لهالك الرقم وماصدقت ،

فى حادثة واحدة إستؤجر ليقتل فدخل على ضحيته فى داره وقتله ، واضاف إليه زوجته ، وأبناءهما الثلاثه . أطفال لايتجاوز سنه أكبرهم السابعة أما الصغير فكان رضيعا . خمسة أشخاص فى حادثة واحدة . فيها أيضا إصابة الجرح الذى ترك آثارا على خده الأيسر . لقد جنت المرأة وهى ترى زوجها ، وابنها الأكبر الذى كان معه يقتلان أمامها ، وتناولت مديه ، لعلها من مطبخها وحاولت قتل الرجل ، فكان نصيبها وولداها الآخران ان لحقوا بهما . سلسلة من الجرائم لاتنتهى ، وسيل دماء يتدفق وراءه حيثما حل .

هذه لمحة سريعة عن نوع جرائم الضاحك ، لعلها تعطيك فكرة عن شخصيته . ذاعت شهرته فى اوساط الشرطة ، والمجرمين على السواء ، حتى ان مجرد ذكر اسمه كان يلقى الرعب فى أشد القلوب عتوا ، وأكثرها شجاعة . إنتشرت عنه الشائعات حتى أضحى أسطورة . نسبت إليه جرائم ربما لم يقترفها . وقالوا إنه حليف الشيطان ، وانه يعبده ، ويقدم على القتل إرضاء له ، وفى المقابل أضفى عليه الشيطان حمايته ، ووهبه قوى تفوق قوى البشر . ربما كانت هذه مجرد أراجيف ، وربما لم تكن .

أخيراً قبضوا عليه . ببساطة غريبة تقدم رجل مسن ، تعدى السبعين ، للشهادة ضده وصحبته حفيدته . وصفاه وصفا دقيقا ، فمن اليسير التعرف عليه كما تعلم . قالا إنه قتل جارهما ، وأنه كان يضحك وهو يزهق الروح . لم يبذل رجال الشرطة عناء كبيراً فى البحث عنه إذ يبدو انه لم يكن يتوقع ان أى شخص يجرؤ على الشهادة ضده ، او لعله لم ير الشاهدين وإلا لقضى عليهما .

حل موعد المحاكمة ، وفى قاعة الجلسة رأيته لأول مرة . إنك رأيت صورته ، وهى صورة مجسمة صحيحة لكنها لاتقارب الحقيقة . كان الشر ينبع فى كل خلجة وجه ، وفى كل حركة ، ونظرة . لو ان احدا سأل امهر رسام ان يجسد الشيطان لما امكن ان يصوره بأبشع من هذا الرجل . إذا أضفت إلى هذا الوجه جسداً نحيلا فارعا ، وكتفين عريضتين ، وأصابع خلت من اللحم فكأنها مخالب موتى ، فربما تستطيع ان تتصور مدى مايمكن ان يلقيه مثل هذا الشخص من الرعب فى القلوب .

إستمعت المحكمة إلى الشهود ، وترافع ممثل الدفاع ، وترافع ممثل النيابة ، ولم يشك أحد من الحاضرين فى الحكم .. أثناء المرافعتين حولت نظرى عدة مرات إلى المتهم فى القفص . ظل صامتا طوال الوقت ، لكنه كان كأسد حبيس يستعد للوثوب . كان يرمق الشهود ، الرجل العجوز ، والفتاة ، والضابط الذى قبض عليه ، وممثل النيابة ، بنظرات نارية ملؤها الحقد ، والكراهية حتى لكأنك تستطيع أن تشم رائحة كريهة فى النظرات . ذات مرة حينما إلتفت إليه كان ينظر إلى . ركز نظراته البشعة على عينى . حاولت أن أحول نظرى فلم أستطع . أحسست أنى ضحية أخرى له ، وكأنه يعتزم قتلى . لست أدرى لماذا غمرنى هـذا الشعور ، وتملكنى حتى لكأنى عصفور صغير سحرته عينا الأفعى وسمرته فى مكانه حتى إلتهمته .

إستدعى الأمر إستجماع إرادتى حتى حولت نظرى إلى المحكمة ، ولم أجسر على النظر ثانية إليه إنتهت المرافعة ، ولم ينسحب أعضاء المحكمة للمداولة . مالوا على بعضهم يتشاورون ثم نطق الرئيس بالحكم . إحالة الأوراق إلى المفتى . لبرهات قلائل عم القاعة سكون مطبق قطعته ضحكة منخفضة . ضحكة شيطانية حولت الأنظار إلى المتهم . كان أعضاء المحكمة يهمون بالوقوف للانسحاب إلى غرفتهم ، ووقف الجميع إحتراما . وتكلم الرجل

ـ سوف أقتلكم أجمعين ، ولو أرسلتمونى إلى جهنم السابعة سأعود لأقتلكم .

جره الشرطة المكلفون بالحراسة ، ليخرجوا به والتفت أنظر إليه .. رغما عن تكالبهم عليه فإنه وقف ينظر إلى ، ولم يعر الضربات التى إنهالت عليه إهتماما . ركز نظره حتى أنى تسمرت ثم أرسل ضحكته الشيطانية ، وسمعته يقول

ـ أنت .. أنت .

لم أفهم ماذا يعنى ، وتغلبوا عليه قبل أن يتفوه بكلمة أخرى ، لكن رنين ضحكته ، وصوت كلماته ، ونظراته النافذة إستمرت تؤثر فى لمدة طويلة بعد ذلك

حينما رأيت الشهود كان الضابط يحاول أن يتمالك أعصابه ، أما الفتاة ، والرجل العجوز ، فكانا منهارين تماما .

تابعت تاريخه فى السجلات ، وتابعت محاكمته فى النقض ، لكننى لم أجرؤ على الدخول إلى القاعة ، ولم أرد مجابهته فى أية مرحلة . كانت شخصيته تسحرنى ككاتب فبدأت أجمع خيوط القصة . من الغريب أنى وأنا أتكلم الآن أذكر السهولة العجيبة التى صادفتها فى جمع المعلومات . ببساطة وسرعة فائقة حصلت على كل ما أريد ، وكأنما هنالك شخص يقدمها إلى ، ويسعى معى . لم أطلب محضرا فى قسم الشرطة إلا عثرت عليه بمجرد الطلب ، لم افكر فى سؤال شخص إلا وكان حيثما ذهبت أبحث عنه كأنما ينتظرنى ، لم افتح سجلا إلا وكانت الصفحة المنشودة تقفز أمام عينى . لم أصادف مثل هذه السهولة فى جمع مادة كتاب مطلقا . استطيع أن اذكر لك عشرات الحوادث البسيطة التى بدت لى فى وقتها وكأنما هى تحدث بمحض الصدفة لكننى وانا اتكلم الآن أعلم فى أعماقى أنها لم تكن كذلك . كان هنالك من بعدها ، ويمهد لى السبيل قبل أن أسعى .

حينما بدأت الكتابة جرى الأمر بالمثل . بيسر فائق جرى قلمى . لم أبحث عن المسودات فلا أجدها كما يحدث عادة ، كانت دائما تحت يدى . لم يقطع أفكارى زائر غير مرغوب فيه ، ولا جاءتنى محادثة تلفونية ، ولا حدثت حادثة خارجية تؤثر فى عملى ، أو تستغرق وقتى . كنت أنام مرهقا ثم أستيقظ بعد ساعة أو إثنين نشطا ، وكانى إسترحت طوال الليل ، وأبدأ فى الكتابه . كيف كتبت الصفحة التى شملت وصف الوجه كما رأيته ؟ لست أدرى . كل ما أذكره أننى بدأت فيها فى منتصف الليل ، ولم تمض دقائق حتى كانت قد إنتهت . من الغريب بعد هذا أننى تكاسلت فى الكتابه ، وقل حماسى فلم أسطر إلا أقل من صفحة أو اثنتين فى اليوم . كانما كان هنالك من يستخدمنى لغرض معين ، ويساعدنى على القيام به ، فلما وصل إلى هدفه فقد إهتمامه بى ، وتركنى لشأنى . إننى أشعر بهذا الآن ، ومن البدهى

أننى لم أشك فى شىء قبلا . قبل أن تنتهى محاكمته فى النقض ، وقبل أن يعدم شنقا كنت قد إنتبهت من كل ماهو مسطر أمامك .

فى صباح أحد الايام أيقظتنى فى غير موعدى رائحة كريهة نفاذة تملأ المنزل . ظننت فى مبدأ الأمر أننى نسيت بعض المأكولات ففسدت ، فذهبت إلى المطبخ ولم أجد شيئا . تتبعت الرائحة حتى وجدت انها صادرة من حجرة المكتب . فتحت النوافذ واخذت ابحث فربما كان هناك شىء فاسد فى أحد الأركان . ولم أعثر على شىء . فى ذلك الصباح رأيت الوجه لأول مرة . حانت منى إلتفاته إلى المكتب ووجدت ان الكراس مفتوح على هذه الصفحة . صدقنى اننى لم الحظ قبلها ذلك الوجه المرسوم ، لكنه فى الصباح كان يطل على ، ومملؤه الحياة حتى اننى تراجعت مبتعداً . لعلى اخطأت فى التعبير . لم تكن نظراته مليئه بالحياة فحسب ، وإنما كانت ايضا فياضة الأحاسيس ، والمشاعر فيها لغة الإنتصار والكراهية ، والتهديد .

ومنذ ذلك الوقت لم أجرؤ على أن كتب حرفا واحدا فى الكراس . إن القصة تكاد أن تنتهى من حيث روايتها ، ومع هذا فإنى وجدت نفسى أدعها جانبا . كلما هممت أن أتناولها لأتمها ، وفتحت الكراس طالعنى الوجه ، واضطر إلى غلقه وأنا أرتعد . مضت أيام لم أكتب فيها حرفا ثم قررت ان لاأنساق وراء تيار الأعصاب ، وإلا انهارت ، فبدأت أفكر فى كتابة قصة أخرى .

عدت إلى سابق عهدى من تتبع الجرائم والمجرمين . حضرت ذات يوم إحدى محاكم الجنايات ، وكانت الدائرة نفسها التى حكمت على القاتل الضاحك بالشنق . كان أحد المحامين يترافع ، وجلست هيئة المحكمة تستمع . تراجع الرئيس فى مقعده ، وراح ينظر بصبر إلى المترافع فجأة رأيته يعتدل وينظر أمامه ، أولا كمن لايصدق مايرى ، ثم برعب أفقده السيطرة على نفسه . لاحظ المترافع ماطرأ على رئيس المحكمة ، فتوقف ، ومال على الرئيس زميلاه ، كما اتجهت الانظار جميعها إليه ، لكنه كان كأنما فقد عقله .

إرتفعت يداه تدفعان شيئا غير مرئى يهبط عليه ، وأطلق صرخات ألم مكتومة .
لم تفلح هيئة المحكمة فى تهدئته إذ إستمر فى حركاته الغريبة لثوان بدت دهرا ثم إنكفأ على وجهه

قالوا بعدئذ إنه أصيب بهبوط فى القلب إثر اجهاد زائد ، لكننى أعلم غير ذلك . وسط كل الهرج الذى حدث فى القاعة سمعت ضحكة شيطانية لم أشك لحظة فيمن أطلقها . إن رئيس المحكمة لم يمت بذبحة صدرية ، أو هبوط فى القلب ، وإنما إنهالت عليه خناجر غير مرئية تمزق قلبه ، وشرايينه ، وتورده حتفه ، والقاتل قابع فى منزلى مطمئن بين صفحات المسودة .

لست أدرى هل تستطيع أن تتصور شعورى حين غادرت المحكمة وأنا أعلم ذلك ، بل أننى ذهبت فى تصورى إلى أننى القاتل الحقيقى إذ أن الكلمات القاتلة صدرت منى ، وبخط يدى ، وسمعي شخصيا وراء القضية الملعونة . لم أكن أستطيع أن أبوح بما أعلم لأى شخص ، فلو فعلت لاتهمنى بالجنون . فكرت أن آتى إليك إلا أننى أعرف طبيعتك العملية ، وخشيت الا تأخذ الأمر على محل الجد . إحترت أين أذهب وماذا أفعل . لعلى كنت أسير فى الطرقات هائما بغير هدف ، وربما أكون قدجلست فى أحد المقاهى ، الواقع أنى لم أشعر بمضى الوقت إلا حينما وجدتنى مستقلا قطار الصحافة إلى الاسكندرية .

أردت ان أختلى بنفسى بضعة أيام أفكر فيها بعيدا عن المنزل ، وبعيدا عن المسودات اللعينة . أردت أن أقدر موقفى . هل أنا شريك حقا فى قتل المستشار ؟ بعد بضعة ايام داخلتنى الشكوك فى تصورى . إن المستشار كان رجلا كبير السن ، الا يجوز ان تكون قد اصابته حقا نوبة قلبية ؟ ان هذا كثير الحدوث لرجال القضاء ، وليس هو بأول رجل منهم اصيب وهو على المنصة . الا يجوز ان اكون مخطئا ؟ الا يجوز ان يكون خيالى قد حمل الأشياء اكثر مما تحتمل ؟

طمأننى هذا التفكير ، ومع مرور الأيام اقتنعت بأن ما فكرت فيه كان مجرد وهم لا معنى له ، وحمدت الله اننى لم ابح به إلى أحد ، واعرض نفسى للسخرية .

إعتزمت ان أقضى بعض الأعمال فى الاسكندرية ، وأعود إلى القاهرة عصر اليوم التالى ، قررت ذلك ونمت قرير العين . ثم جاء الصباح اللعين . كان اول خبر قراته مع افطارى هو ان نوبة قلبية أصابت ممثل النيابة وهو يترافع فى احدى الجنايات . قرات الإسم ، ولم أشك انه هو نفسه الذى كان قد ترافع فى قضية القاتل الضاحك ، بل ان الجريدة ذكرت القارىء بهذا ، وذكرته بأن رئيس الدائرة التى حكمت فى الجناية قد توفى بالسبب نفسه منذ أقل من أسبوعين .

لم يعد لدى أدنى شك . ان ممثل النيابه كان صغير السن ، لا يتجاوز الأربعين ، ومن المستبعد ان تصيبه اية نوابات قلبية . كان الطريق أمامى واضحا . على ان أذهب إلى المنزل ، وان امزق القصة . ان مثل هذا القرار عسير على المؤلف فهو ينظر إلى قصته كما ينظر إلى وليد له وليس من اليسير ان يقتله . لكن لم يكن فى الأمر مناص . ان هنالك عضوى المحكمة ، وهناك الشهود الثلاثة ، وجميعهم معرضون للموت ، لا بل القتل ، بسببى ، على ان أسرع الى تمزيق القصة .

اتخذت سبيلى إلى لقاهرة ، ووصلت فى المساء . كان ذلك امس . حينما فتحت باب المنزل هبت على تلك الرائحة العفنة . رائحة القبور . فتحت جميع النوافذ حتى زالت ، ومع هذا بقيت حجرة المكتب ، عطنة ، وكأنما الصدأ قد غطى جدرانها . توجهت إلى المكتب وتناولت الكراس وفى عزمى ان أمزقه . لست أدرى كيف أصف لك ما حدث . كيف اقول ان الرائحة اختلطت بالرؤية فأصبح الإثنان واحدا . كيف اصور لك تلك الرائحة الكريهة التى نفدت إلى أنفى حتى كاد ان يغشى على ، واننى من خلالها أعنى من خلال الرائحة ، رأيت العينين الشريرتين تلتمعان .

هل لكلامى هذا معنى ؟ هل يمكن للرائحة ان تتجسد ؟ هل يمكنها ان تتكاثف حتى تخفى ضياء المصباح ؟ ام عسانى أكون قد انتابتنى غشاوة فأظلمت الدنيا ؟ فسرها كيفما شئت ، لكن أيا كان التفسير فهناك حقيقة واقعة ان

الظلام عم الحجرة ، وانني من خلاله رأيت العينين . لم يكن هذا كل شيء فقد التمع نصل خنجر في السواد المحيط وكأن يدا خفية تقبض عليه ، وهبط بسرعة البرق يهدف قلبي . رفعت يدي انفادي الطعنة ، واحسست بالنصل يشق طريقه في لحمي ، وبأن سائلا دافئا لزجا قد بلل ملابسي .

لا أستطيع أن أقول ماحدث بعد ذلك ، فلست أذكره على وجه التحقيق . وربما أكون قد صرخت ، وغشي على ، أو ربما أكون فررت من الحجرة . كل ما استطيع ان اقوله انني حينما بدأت اعود إلى رشدي كنت ملقى على الفراش في حجرة نومي ، والعرق يتصبب مني . مضت دقائق وانا في شبه غيبوبة لا أدري ماحدث ، ثم بدأت الذاكرة تعود إلى . كان اول عمل عمدي اقوم به ان حركت ذراعي ، وأحسست بها تؤلمني . تحسست ملابسي وانا اعتدل في الفراش لكنها لم تكن ممزقة ، ولا تبلت آثار دماء عليها .

ترددت قليلا قبل ان استطيع ان استجمع شجاعتي ، وانسلل إلى غرفة المكتب كانت ما زالت مضاءة . لم اجسر على الدخول وتنقلت ببصري في ارجائها وراعني ان الكراس كان على المكتب . انى اذكر تماما انى تناولته ، ورفعته من المكتب ومع هذا فها هو امامي مستقر في مكانه !! هل كان ما حدث لى مجرد حلم ؟ إن الألم الذي أشعر به في ذراعي يؤكد لى انه لم يكن كذلك . عدت إلى حجرة النوم ، وخلعت ملابسي وراعني ان أرى على ذراعي ندبا طويلا ومع هذا فإن الأثر يدل بوضوح على ان الجرح قديم ، وانه لم يبق سوى مجرد ندوب موضع التئامه .

منذئذ لم أجرؤ على ان امد يدي على الكراس ، ولم اجرؤ ان أنام ، أو ان امكث في المنزل . خرجت أسير في الشوارع ، وانا اتخيل ان الضاحك يتبعنك . فزعت من كل وجه رأيته ، جفلت من وقع أي قدم ورائي ، حينما بزغ الفجر وجهت إلى مكتبك انتظر قدومك .. هذا ما حدث .. إنما أود ان أريك شيئا .

خلع سترته وشمر عن قميصه . عند الساعد قريبا من العظام ، رأيت الندب . كان من الجلى انه من أثر جرح قديم نشأ عن طعنة مديه أو خنجر . جلست مبهوتا وأنا أنظر ، ثم جاءنى صوته يكاد ان يكون هامسا .

— ماذا افعل ؟! ..

لم يكن هنالك مجال للتفكير بدا خط العمل أمامى واضحا لاريب فيــه ، وأجبــت ..

— إذا كان ماتقوله صحيحا فلابد ان تهدم القصة . حتى إن كان مجرد وهم ، او خيال فأنك لاتستطيع ان تعيش مع تصورك انت السبب المباشر فى قتل إثنين . ثم هنالك خمسة آخرون مهددون بالموت ، ولست احسب ان ضميرك يستطيع ان يتحمل وزرهم .

— لقـــد قلت لك إننى لااجرؤ على ان امـــد يدى على الكراس . إنه سوف يقتلنى !

رأيت مدى إنهيار أعصابه ؛ ربما كان له العذر . واستقر رأيى .

— أين صندوق القمامة ؟

— فى المطبخ .

قمت من فورى وتبعنى . طلبت منه بعض الجاز فجاء بزجاجة ملأى . ووضعنا بعض الصحف القديمة فى الصندوق وصببت الجاز . ثم اشعلت النيران . يبدو اننا لم نلحظ ونحن نفعل هذا ان الضوء فى المنزل يتحول ؛ كما ان رائحة نفاذه بدأت تصل إلى انفينا تطغى على رائحة الجاز القوية . حينما إنتهيت من إشعال النيران فوجئت بإن الضوء قد خفت ، وتحول إلى صفره كأنما قد هبت ريح خماسينية محملة بالتراب . كنا فى حوالى العاشرة صباحا ، ومع ذلك فإن الرؤية بدأت تقل جاءنى صوت صديقى يهتف راجيا .

— إسرع .. لقد أحس بما نحن مقدمان عليه .. إسرع بالله عليك .

قطعت المسافة بين المطبخ وحجرة المكتب عـــدوا ، وإزدادت كثافة الظلام كما تزايدت الرائحة بشـكل جعلنى اود لو القيت مافى جوفى .. مع هذا لم اتوقف. إتجهت من فورى إلى المكتب وقبضت على الكراس ، وهرعت به عائدا إلى المطبخ . قبل ان اصل إلى الباب كان الظلام تاما حتى أننى بدأت أتخبط .. وجاءنى صوت صديقى يصرخ بائسا .

ـــ لافائدة .. لن تستطيع ان تخطو الخطوات الباقية .

من الظلام التمعـ عينان كلها شرور ، وكلها حقد .. خيل إلى أن جزءا من الظلام قد التفت حول نفسه ليصبح جسدا نحيلا طويلا تختفى نهايته مع السواد . حاولت ان أقتحم السواد ، وادخل من باب المطبخ إلا اننى فقـــدت إحساسى بالإتجاه . أحسست اننى أدور فى حلقة مفرغة من الظلام ، وأننى أتخبط فى الجدران ، والأثاث . فى السواد إلتمع خنجر . وإرتفع ليهبط على صدرى . بحركة آلية رفعت ساعدى . آتلقى الطعنة ، وأحسست بنيران تلهب ساعدى . فررت أمام الخنجر ؛ وراح يتابعنى . من المطبخ كان صديقى يصرخ ، ويتـكلم لـكن الذعر كان قد تملـكنى تماما ، ولم أفهم شيئا . كنت أود ان أفر من هذا الموت الذى يلاحقنى . حيثما ذهبت كان الخنجر يلتمع أمامى .

تقطعت أنفاسى . وأصابتنى جروح وخدوش عده من إرتطامى بالجدران ، والأثاث . وتعثرت أكثر من مرة ، وسقطت على الأرض . ومالت العينان ومعهما الملتف بالسواد . إرتفعت ضحـكة شيطانية وهبط الخنجر على صدرى . تدحرجت على الأرض ، وسمعت زمجرة غضب. لم يصبنى النصل لم يكن لى تفـكير سوى ان أفر من الموت ، وان أبتعد عن الظلام الذى يلاحقنى حيثما تحركت . ومع هذا فإننى فى عقلى الباطن كنت أعلم أننى لو تركت الـكراس فسوف أقتل . ظللت لاشعوريا أتمسك حتى به حيثما تعثرت فى مقعد ، وسقطت على الأرض لم أدعه من يدى . بل لعلى شددت عليه . أحسست ان الظلام الذى يتبعنى ، ويترصدنى بالموت ، هو أيضا فى قبضة يدى ، واننى أخنقه ، وامنع عنه التنفس .

من مكان سحيق جائتنى أصوات طرقات شديدة على الباب الخارجى ، وفى الظلام بدت العينان وكأنما أصاب صاحبها الذعر . كان يود أن يقضى على بأسرع ما يستطيع ، وعدت إلى الجرى ، والفرار ، وأنا أتخبط بلا وعى . فجأة هبط الخنجر ليصيبنى مرة ثانية فى ساعدى ، وكاد الكراس أن يسقط . بلهفة إمتدت يد لم أرها ، وإختطفته ، وعلت الزمجرة الغامضة . تركنى الملتف بالسواد ومضى يلاحق رأفت .

لم يمتن صديقى بالدفاع عن نفسه ، ورأيت الخنجر يهبط على ظهره بقسوة . رأيته يترنح لكنه إندفع دون توقف . لم أكن أدرى أين المطبخ لكنه كان يعلم . إرتفع النصل مرة ثانية ، وهبط عليه . صرخت محذرا إلا أنه لم يلتفت . كان كمن كرس نفسه لمهمة ، وعليه أن يؤديها ، دون إعتبار لحياته .

ظهرت النيران لأول مرة منذ بدأ السواد يطغى على المكان ، نيران باهتة كأنما تخبو . فيها ألقى رأفت بالكراس ، ورأيت النصل يرتفع ، ويهبط عدة مرات بسرعة خاطفة ، ثم شاهدت صديقى يقع على الأرض إلى جوار صندوق القمامـــة .

من الصندوق إرتفعت صرخات مكتومة لشخص يحترق . إزداد لهيب النار إشتعالا وبدأ الظلام ينقشع ليحل مكانه ضوء النهار ، كما زالت الرائحة الكريهة بيطء لتنفذ إلى أنفى رائحة الجاز ، والأوراق المحترقة .

* * *

كسر باب الشقة الخارجى ، وإندفع منه رجل شرطة يتبعه جماعة من الجيران . على ما يبدو ، شاهدونى شعثا ممزق الملابس ، بوجهى كدمات ، وخدوش . رأونى واقفا إلى جوار صديقى الملقى على الأرض ، ورأوا النار مشتعلة فى أوراق داخل صندوق القمامة ، كما رأوا حالة الفوضى التى كانت عليها الشقة . تناولتنى أيديهم ، وأعتقد ان منهم من وكانى ، او ضربنى ، إلا أننى لم أكن أشعر فقد ظللت واقفا كالمذهول . مال أحدهم على صديقى ، ويبدو أنه كان طبيبا ، وتحقق من موته ،

قبضوا على وزجونى فى السجن . تقدم الشهود يروون ما سمعوا من اصوات الصراخ ، والعراك . رووا ما شاهدوا ، ولم ادر ما اقول فظللت على صمتى. مافائدة الكلام ؟ . من يصدقنى لو قلت الحقيقة ..!!! زاد الطين بلة انهم بحثوا فى الماضى ، وعلموا تنافسى مع صديقى على حب زوجتى ، وانى فزت بها دونه إبتدعوا من هذا هدفا للقتل . قالوا إنى فزت بها لأنى الأيسر حالا ، لكنها ظلت على هواها لرأفت . زعموا انى علمت أنهما كانا يتراسلان فصحبته إلى مسكنه ، وإنتزعت منه الخطابات بالقوة ، وأحرقتها ثم قتلته .

ربما كانوا على حق .. وربما لم يحدث شىء مما ذكرته لك .. لعلنى قتلت صديقى فعلا .. أو لعلنى كنت أداة فى يد القاتل الضاحك .. لعل الشيطان قد لبسنى .. لست أدرى .. فقد إختلطت على الحقائق والأوهام .. فما عدت أعرف أين تنتهى الحقيقة ، ويبدأ الوهم .

* * *

الفهرست

كتب للمؤلف

	مليم جنيه
القوى الخفية نظرات فى تاريخ السحر	— ر٤
النسر والصقر — بداية الصراع	٩٠٠ر
عباقرة الأسلاف	٩٠٠ر
المرتد	٢٠٠ر ١

الرب والله زجوجو — ترجمه — الناشر دار المعرفة

تطلب من

المؤلف : ٢٦ شارع محمد بسيونى — القاهرة

الموزع : مطبعة المعرفة — عمارة مصر للتأمين — ميدان لاظوغلى

رقم الإيداع ٤٠٧٥

لسنة ١٩٨٠

مطبعة المعرفة

الثمن ٧٥ قرشاً

اقرأ ...
ثم أعد القراءة
... بتأنٍ

الناشر
مؤسسة المصري للكتاب

الثمن ٧٥ قرشًا